الجمـــهورية الجـــزائريـــة الدمـــقراطية الشـــعبية
وزارة التـــعليم العالي والبـــحث العـلمي
جامعـــة قـــاصدي مربـــاح ورقلـــة
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

صورة الطفل في مختارات من أدب الجاحظ

مذكرة تخرج من متطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: الأدب العربي القديم

إعداد الطالبة:
✓ أسماء ساسي

إشراف الأستاذة:
د. أحلام بن الشيخ

الموسم الجامعي: 2018 /2019

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ

رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

سورة الكهف، الآية 46.

إهداء

الحمد لله الذي وفقني إلى جني ثمار سنوات مضنية من الجهد والبذل .

إلى إمام المرسلين محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم

إلى الشهداء الأبرار.....

إلى الحبيبين اللذان رعوني صغيرة واحتضنوني كبيرة

أمي وأبي رعاهما الله .....

إلى من اقتبست طيفامن الأمومة فكانت السند لبلوغ

غاياتي وتحقيق تطلعاتي .أختي الكبرى زهية

إلى كل من عرفتهم عبر محطات الحياة

إلى كل هؤلاء أهدي عملي هذا.

أسماء ساسي

شكر و عرفان

بداية قبل شكر العبد أشكر المعبود خالق هذا الوجود،

والحمد لله الذي جعل العلم وسيلة لعبادته وسبيلا لمرضاته وطريقا للفوز بجناته

أحمده على نعمائه أن وفقني لإنجاز هذا العمل.

وتيمنا بقول المصطفى عليه الصلاة و السلام " من لا يشكر الناس لا يشكر الله

أتقدم بالشكر إلى من سطرت تاريخها بحبر من دم بلادي الحبيبة الجزائر

التي قدمت لي الكثير وأتاحت لي فرص التعليم.

والشكر الجزيل و الامتنان الكبير أيضا للدكتورة أحلام بن الشيخ

التي صاحبتني بدعمها المعنوي قبل المادي طيلة مشواري الدراسي،

فبثت في روح العزيمة و الإرادة فكانت نعمة الأستاذة و نعمة القدوة

و كان لي كل الفخر و الاعتزاز بإشرافها على هذا البحث.

كما أشكرها على دعمها لي للمضي في هذا الموضوع

ومتابعتها له حتى نضج واكتمل.

و إلى كل من علمني أو أفادني بحرف من الطور الابتدائي

و حتى مساري الجامعي.

إلى أساتذة قسم اللغة والأدب العربي.

بجامعة قاصدي مرباح ورقلة.

و أخص بالذكر الذين أشرفوا على تدريسي

قال القاضي الفاضل عبد الرحيم بن على البيساني:

"إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لو كان غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولوترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر."[1]

[1] محمد بن محمد الحسيني الزبيدي،إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين،مؤسسة التاريخ العربي ،بيروت ،ت ط؛1994،ص3

مقدمة

مقدمة:

الأدب هو عنوان الحضارة، ومصدر رقيها الفكري بعد الفلسفة، وذخيرتها الفنية التي لا تنضب شعرا ونثرا؛ هذا الأخير الذي جمع معالم حياة الشعوب بحلوها ومرّها، وواقعها وخيالها، وذلك من خلال تطرقه لجميع وقائع الحياة، معبرا في ذلك بمختلف الأجناس الأدبية من حكايات ونوادر وطرف ومقامات وقصص ووصايا، وغيرها من الفنون القولية الخطابية والترسليّة، التي أحسنت تصوير العصور والحيوات بأشكال فنية بليغة ومتميزة حفظتها الذاكرة العربية على مرّ الأجيال وتربى بنصوصها القارئ صغيرا وكبيرا.

و إذا ما عدنا إلى الموضوعات المتطرق إليها في المصنفات الإبداعية في الأدب العربي القديم لفتنا عناية المؤلفين بكل مظاهر الحياة بما في ذلك التربية والتنشئة السليمة للطفل وفق ضوابط دينية وأخلاقية، سواء ذكرت بشكل مباشر تلقينا وتوجيها، أو أنها وظفت لأغراض فنية وأخرى موضوعية مختلفة. ووفق هذا الطرح أردت أن أبحث في موضوع تصوير الطفل في الأدب القديم، فاخترت أن أسِم موضوع مذكرتي ب:

" **صورة الطفل في مختارات من أدب الجاحظ**"

ورغبة مني إلى التطلع لهذا الموروث، وبعث هذا التليد إلى الحاضر، إذ نحن في أمس الحاجة إلى التأصيل، والتمسك بجذور التراث، واثبات شريان التواصل بين الماضي والحاضر. واتجهت لاختيار نصوص الجاحظ لما تعلمته من كتاباته التي عنيت بتفاصيل الحياة وظروف الخلق، وتقصي أخبار الناس ونوادرهم، وتتبعه لمظاهر عيشهم وأحوالهم، بعناية فنية لا يَسِمُها انقطاع النظير، بقدر تمكُّنها من نقل صور الحياة في العصر العباسي بطرق فنية وبلاغية متميزة، بما فيها عنايته بموضوع التنشئة وتصويره للطفل في عصره، في صور ليست كثيرة لكنها متميزة ومهمة.

ومن هذا المنطلق كانت الإشكالية الرئيسية: كيف صور الجاحظ الطفل فنيا وموضوعيا؟

وتحيلنا هذه الإشكالية بدورها إلى عدة تساؤلات فرعية تسعى الدراسة إلى أن تجيب عنها، لتظهر أهمية الموضوع، وتزيح عنه الضبابية، أبرزها:

- كيف اعتنى الجاحظ بالطفولة في أدبه، وعلى أي أساس بنى تصويره لهذه الفئة؟
- ما أنواع الفنون الأدبية التى كانت ميدانا لتصويره؟
- وما الأساليب الفنية الموظفة في ذلك؟

ويهدف الموضوع من خلال الأسئلة السالفة إلى إماطة اللثام عن مثل هذه القضايا التي قلّ تناولها، لكنها تمثل جزء عميقا من تاريخ العرب واهتمامهم بتربية نشئهم، وتأكيدا على أن التراث الأدبي العربي يزخر بمثل هذه الصور الملفتة.

وحرصا على علميّة الدراسة ودقّة منهجها، اعتمدت المنهج الفني سبيلا في تقصّي أنواع التصوير وأساليبه، وترافق مع ذلك التحليل والشرح والوصف كأدوات ضرورية لبسط مادة الموضوع، كما استعنت بالمنهج التاريخي في مواضع التعرض لصورة الطفل في التاريخ العربي حفاظا على تسلسل الأفكار ودقّة الطرح.

وبناء على ما سلف تطلّب مني البحث انتهاج خطة قوامها، تمهيد وفصلين؛ تناول التمهيد موضوع تصوير الطفل في الأدب العربي القديم، إحاطة بالفكرة وترتيبا لأجزائها، وقد رصدت فيه صورة الطفل من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي. واتجه الفصل الأول نحو موضوع عناية الجاحظ بالطفولة في أدبه وقصدت من خلاله الجانب الموضوعي من التصوير تحضيرا للدراسة الفنية في الفصل الثاني والذي جاء بعنوان. البعد الفني لتصوير الطفل في أدب الجاحظ، وانقسم بدوره بين تحديد أشكال تصوير الطفل وأدواته. وفيه فصلت الأشكال الفنية التى استخدمها في ذلك. أما المبحث الثاني فتخيرت ضبط المعجم اللفظي الملائم للتصوير. وهنا كانت لي وقفه مع التسميات التي اطلقتها العرب على أبنائها. لختم

الفصل بالبحث في مدى واقعية الصور ومحدودية الأخيلة وعدم تأثيره على بلاغتها فعرضت فيه أسلوب الجاحظ في تصوير الطفل ما بين الواقع والخيال.

وإذا ما تحدثنا عن أهم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، فقد تهيّأ لي بعد البحث مجموعة من الدراسات ذات العلاقة المباشرة بالموضوع واستفدت منها في الجانب التاريخي لتصوير الطفل عند العرب، كرسالة الماجستير المعنونة بـ:"صورة الطفل في الشعر الجاهلي" لربى شحاده صابر سماره، وهي مذكرة قيّمة وقفت على مظاهر التصوير وأشكاله وأساليبه، وكذا مذكرة ماستر بعنوان "صورة الطفل في الأدب العربي القديم " لقطافي تقي الدين. وقد ركزت على ذات التفاصيل.

وفي الأخير أنوه إلى الصعوبات التى واجهتها أثناء انجازي لهذا البحث، وذلك ليس من نافلة القول كما جرت العادة وإنما واقعا حقاً، كان من العسير تجاوزه، وهما أمران:

1) زئبقية الموضوع، فالموضوع إن صح التعبير من السهل الممتنع، فالخلط بين أدب الطفل، وصورة الطفل، والتشبيه بالطفل، جعلني على درجة عالية من الارتباك أثناء العمل، والحرص على التدقيق والفحص والتمحيص، حتى لا أخرج عن مسار الموضوع، فصورة الطفل غير أدب الطفل، وكذا التشبيه. فهذه الزئبقية وهذا التمويه منحا البحث قدرًا من الصعوبة.

2) الوقت، وقد شعرت وأنا انجز هذا البحث أني في سباق معه، فدراسة كهاته تحتاج إلى قدر كاف من الوقت، بحكم تناثر المعلومات بين دفات أمهات الكتب، فالبحث في كتاب يحتوي على 400 أو 500 صفحة، لتتحصل على معلومة في سطر أو سطرين ليس بالأمر اليسير.

هذا، والحمد لله الذي يسر كل عسير وذلل كل عصي، أحمده أن وفقني لإتمام هذا البحث، فلولا رعايته وتوفيقه، وعمل المشرفة الدؤوب معي، التي صاحبت البحث منذ ولادته وتابعته

خطوة بخطوة، حتى استوى عوده وظهر على الصورة التي هو عليها اليوم، وهذا إن دل على أمر فإنما يدل على حبها وغيرتها وإخلاصها للعلم أولاً ولمهنتها الشريفة ثانياً، فلها مني فائق الحب و الاحترام والتقدير. كما لا أنسى شكراً وعرفانا للأستاذ "رحمون حكيم" الذي شجعني على المضي في الموضوع فضم صوته إلى صوت الأستاذة المشرفة، بأن تتبع مراحل انجاز هذا البحث باهتمام كبير.

أسماء ساسي

ورقلة في: 12 رمضان 1440هـ
الموافق ل17 ماي 2019م

تمهيد

تصوير الطفل في الأدب العربي القديم

تمهيد:

تعتبر الطفولة أهم مراحل حياة الإنسان وأكثرها تعقيدا، فالطفل نصف الحاضر وكل المستقبل، وعلى اعتبار مكانته وأهمية دوره في الحياة، مُنِحَ العناية الخاصة في ضمير المجتمع، فرعاية الطفل والاهتمام به متجذران في تاريخ العربية منذ العصر الجاهلي، ويتجلى ذلك في مظاهر مختلفة حوتها مصنفات العرب، كعناية العرب بإرسال أبنائها إلى البوادي قصد التنشئة السليمة في ظروف البداوة القاسية، ليشبُّوا أقوياء البنية يقاوموا قسوة الحياة من حربٍ وصيدٍ، وليكتسبوا فصاحة اللسان، ومهارة القول، لصفاء قريحة أهل البادية، وخير مثال على ذلك الحبيب المصطفى صلوات الله عليه، الذي أرسل للبادية لمرضعته حليمة السعدية، (قالت حليمة: فانطلق الناس بأولادهم إلى ذلك القائف يقوف لهم، فانطلق الحارث بن عبد العزى- تعنى زوجها- برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك القائف، فلما نظر القائف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أخذه فقبله ثم قال: ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون من بني سعد، فقال له الحارث صدقت هو مسترضع فينا وهو ابني من الرضاعة)[1]، وهذا اهتمامهم من حيث بنية الأطفال وإذا خضنا في الحديث عن فرحهم ونشوتهم بهم، فالعرب كغيرهم من بني البشر، سيطرت عليهم غريزة حب البقاء فهم يرون في أبنائهم بقاءً لنسلهم، وكيدًا لأعدائهم، (تقول أعرابية: سئلت عن ابنها فقالت: أنفع من غيث وأشجع من ليث؛ يحمي العشيرة ويبيح الذخيرة ويحسن السريرة)[2].

وعلى بساطة الحياة العربية المعيشة فقد كان العرب ينشدون لأبنائهم وهم صغارا ويغنون لهم أغاني الترقيص مما يندرج في الآداب الشعبية، فهذه الأغاني يعبرون بها عما يختلج في صدورهم اتجاه أبنائهم من فرحة بهم، ووصف لهم بصفات حميدة يأملون أن

1 محمد بن ظفر المكي، أنباء نجباء الأبناء ،565-497هـ، ص 18

2 هبه الله بن العديم، الدراري في ذكر الذراري، تحقيق: علاء عبد الوهاب محمد، دار السلام،ط؛1، ت ط؛1404هـ/1984م، ص 30.

يتحلوبها في كبرهم. وأدعية يدعون بها لهم، وقد جاء في كتب السيرة النبوية والأنساب والتراجم أن حليمة السعدية كانت تغني للنبي صلى الله عليه و سلم، وتحبه حباً كبيراً، وترقَّصه وتقول:

يارَبّ إذْ أعْطَيْته فَأبْقِهِ

وأعْلِه إلى الْعُلاَ وَرَقْهِ

وَادْحَضْ أَبَاطِيل الْعِدَا بِحَقْه[1]

وهذه شيماء أخت الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تحتضنه مع أمها وتعتني به وترقصه وهو طفل، تقول:

هَذَا أَخ لِي لَمْ تَلِدْهُ أُمِيّ

وَلَيْسَ مِنْ نَسْلِ أَبِي وَعَمَّي

فَأَنْمِهِ اللَّهُم فِي مَا تُنْمِي[2]

ويقول الزبير بن عبد المطلب وهو يرقص ابنته أم الحكم ويشبهها بالظبي:

يَا حَبّذَا أُمُّ الْحَكَمْ كَأَنّهَا رِيمُ أَحَمْ

يَابَعْلَهَا مَاذَا يَشَمْ سَاهَمَ فِيهَا فَسَهِمْ[3]

وللارتباط العربي بالغنائية والدندنة، إذ جعلها متنفساً له فتعددت موضوعات هذه الأغاني، فهذه أعرابية تشكو عدم انجابها للأولاد وتتمنى ولداً فتقول:

1أحمد أبو سعد، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب، دار العلم للملايين، ط؛2، 1986 م، ص 66.

[2] المرجع نفسه، ص: 66.

3حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، منشورات إقرأ، بيروت – لبنان، ط:2، 1400 هـ/ 1980 م، ص:55-56.

يَا حَسْرَتَا عَلَى وَلَدْ أَشْبَهُ شَيء بِالأَسَدْ

إِذْا الرِجَالُ فِي كَبَدْ تَغَالَبُوا عَلَى نَكَدْ

كَانَ لَهُ حَظُّ الأَسَدَ[1]

وهذه أخرى لم ترزق ولداً، وبقيت تندب حظها وتتشوّق إلى ابن تلاعبه، إلى أن رزقها الله بغلام فكانت ترقّصه وتقول:

أُحِبُّهُ حُبَّ الْشَّحِيح مَالهُ

قَدْ كَانَ ذَاقَ الفَقْرَ ثُّم نَالِهُ

إِذَا أَرَادَ بَذْلَه، بَدَا لَهَ[2]

ويصور لنا حكيم مدى ذكاء طفل خاض معه في الحديث: (سأل حكيم غلاماً معه سراج، من أين تجيء النار بعدما تنطفئ؟ فقال: إن أخبرتني إلى أين تذهب أخبرتك من أين تجيء)[3]، فعلى هذا الشكل صوّر الآباء والأمهات أطفالهم في كل الهيئات، وكما كان لهم نصيب في ذلك، كان للفئة المثقفة بصمة في هذا لأمر. فالأدب هو الحبل الوتين بالنسبة للمجتمع وهو الأبلغ في تصويره، لذلك نجد الشعراء صوّروا الأطفال في جل المواضع فهذا عمر بن كلثوم يصف الفتيان في الحرب فيقول:

بِفِتْيَانٍ يَرَوْنَ القَتْلَ مَجَّداً وَشِيبٍ فِي الحُرُوبِ مُجَرَبِينَا

حُدَيآّ النَاسُ كُلُهُم جَمِيعاً مُقَارَعَةَ بَنِيهِمْ عَنْ بَنِينَا[4]

ويقول المرقش الأكبر في استخلاف الأبناء للآباء في الأرض.

---

[1] – هبه الله بن العديم، الدراري في ذكر الذراري،تحقيق:علاء عبد الوهاب محمد ،دار السلام ،ط؛1،ت ط ؛1404هـ/1984م ، ص: 17.

[2]– أحمد أبو سعد، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب،دار العلم للملايين ،ط؛2، ت ط 1986، ص:56.

[3] – هبه الله بن العديم، الدراري في ذكر الذراري، ص: 72.

[4] – عمرو بن كلثوم، الديوان، جمع وتحقيق وشرح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط:1411،1 هـ/1991م، ص: 77.

لَيْسَ عَلَىَ طُولِ الحَيَاةِ نَدَمُ وَمَنْ وَرَاءِ المَرْءِ مَا يَعْلَمُ

يَهْلِكَ وَالِدُ وَيَخْلِفُ مَوْ لُودُ وَكُلُّ ذِي أبِ يَيْتَمُ

وَالَوَلِدَاتُ يَسْتَفِدْنَ عنّي ثُمَّ عَلَى المِقْدَارِ مَنْ يُعْقَمُ[1]

ويفتخر العرب بأنسابهم وأصولهم إذا يقول النابغة في ذلك:

لَعُمْرِي لَنِعْمَ المَرْءِ مِنْ آل ضَجْعَمِ نَزُورُ بِبَصْرَى أَوْ بِبُرْقَةِ هَارِبِ

فَتًّى لَمْ تَلِدْهُ بِنّتُ أَمُّ قَرِيبَةِ فَيَضْوِي وَقَدْ يَضْوِي سَلِيْلُ الأَقَارِبِ[2]

وفي بكاء الآباء على الأبناء ورثائهم: (هذا رجل من بني ضبة في الجاهلية له بنون سبعة، فخرجوا بكلب لهم يقتنصون، فأووا إلى غار فهوت عليهم صخرة فأتت عليهم جميعهم، فلما استراث أبوهم أخبارهم، اقتفوا آثارهم حتى انتهى إلى الغار فانقطع عنه الأثر، فأيقن بالشرّ، فرجع وأنشأ يقول):

أَسَبْعَةُ أَطْوَادٍ أَسَبْعَةَ أَبْحُرُ أَسَبْعَةَ آسَادٍ أَسَبْعَةَ أَنّجُم

رُزِئْتُهُم فِي سَاعَةَ جَرَّعْتُهُم كُؤُسُ المَنَايَا تَحَتَ صَخْرُ مُرْضِم

فَمنْ تَكَ أَيَّامُ الزَمَانِ حَمِيدةٌ لَدَيْهِ فَإِنِي قَدْ تَعَرَقْنَ أَعْظُمِي

بَلَغْنَ نَسِيسِي وَارْتَشَفْنَ بَلاَلَتي وَصَلَيْنِني جَمْرُ الأَسَى المُتَضَرّم

أَحِينَ رَمَانِي بِالثْمَانِين مَنْكِبُ مَنَ الدَّهْرِ مَنَح فِي فُؤَادِي بِأَسْهُمِ[3]

---

[1]– المفضّل الضبّي، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط:6 ، د.ت، ص: 239.

[2]– النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، د.ت، ط:2، ص: 227.

[3]– أبي علي القالي، الأمالي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ج:1، ص:61.

وبقي على حزنه هذا حتى لحق بهم لشدّة حزنه عليهم.

وتستجمع الأبيات السالفة من المعاني الدَّارجة في البيئة القبليَّة ما يؤكَّدُ اعتزاز العرب بذكورها، وتعد هذه الأشكال الأكثر ذيوعاً في العصر الجاهلي، وما إن هبت ريح حيث الإسلام حتى مُنحت للطفولة صورٌ أخرى ومواضيع أشمل إذ تغيرت زاوية الاهتمام بالطفل من جميع المناحي، ابتداءً من الأساس المكون للأسرة ألا وهو اختيار الزوجة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يرى في صلاح الزوجة صلاح الأبناء، وصلاح الأبناء صلاح المجتمع فيقول: (انظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دسّاس)[1]، كما سعى الإسلام لبناء الأبناء فكريا وجسديا إذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:(علموا أولادكم الرماية والسباحة وركوب الخيل)[2].

لقد طغت على هذا العصر الصبغة الدينية نتيجة رغبة الناس في تعليم أبنائهم تعاليم الإسلام، فكانت الوصية من أكثر الألوان بروزاً وقد وردت في أبيات شعرية وقطع نثرية، وبالرغم من تأثير الإسلام في المجتمع العربي، إلا أنهم لم يتخلصوا من فكرة الغناء لأبنائهم وترقيصهم.

وقال الزبير بن العوام في ترقيص ابنه عبد الله

أَزْهَرُ مِنْ آل أَبِي عَتِيقْ
مُبَارَكُ مِنْ وَلَدِ الصَدِيقْ
أَلَذُّهُ كَمَا أَلَذُّ رِيقِي[3]

[1] – هبه الله بن العديم، الدراري في ذكر الذراري، تحقيق: علاء عبد الوهاب محمد،دار السلام ،ط؛1،ت ط ؛1404ه/1984م، ص: 17.

[2] جلال الدين السيوطي، الفتح الكبير، تحقيق: يوسف النبهاني، دار الفكر، بيروت–لبنان، ط:1،ج: 2، 1423ه/ 2003م، ص: 219.

[3]أحمد أبو سعد، أغاني ترقيص الأطفال عند العرب،دار العلم للملايين ،ط؛2، ت ط ؛1986، ص: 58.

وهذه أغنية غنتها أم لابنها بلغت بها أوج رقة العاطفة ونبل المشاعر بها إذا تقول:

يَاحَبَّذَا رِيحُ الوَلَدْ

رِيحُ الخُزَامَى فِي الْبَلَدْ

أَهَكَذَّا كُلُّ وَلَدَ

أَمْ لَمْ يَلِدْ مِثْلِي أَحَدْ؟[1]

وفي تصوير ثبات الأطفال ورجاحة عقولهم يذكر:(مرّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على صبيان يلعبون فتفرقوا من هيبته ولم يبرح الا ابن الزبير، فقال له: مالك لم تبرح؟ فقال: ما الطريق ضيقة فأوسعها لك ولا لي ذنب فأخاف)[2]،هكذا ربوا أبناءهم على الشجاعة والجرأة في المواجهة، كما غرسوا فيهم العديد من الخصال الحميدة والأخلاق الفاضلة حتى أصبحوا يحددون حبهم لأبنائهم بأيهم أكثر خلقاً وأقرب للاستقامة؛ (تقول ماوية بنت النعمان بن كعب لزوجها لؤي بن غالب: أي أولادك أحب إليك؟ قال: الذي لا يرد بسطة يده بخل، ولا يلوي لسانه عي، ولا يغير طبعه سفه، يعني كعب بن لؤي)[3]، ويقول شاعر في العزة بالأبناء:

مَنْ كَانَ ذَا عَضُدْ يُدْرِكُ ظُلاْمَتَهُ

إِنَّ الَذلِيلَ الّذِي لَيْسَتَ لَهُ عَضُدْ

تَنْبُو يَدَاهُ إِذْا مَا قَل نَاصِرُهُ

---

[1] المرجع السابق، ص: 59.

[2] –هبه الله بن العديم، الدراري في ذكر الذراري،تحقيق :علاء عبد الوهاب محمد، دارالسلام ،ط؛1،ت ط؛1404هـ/1986م، ص: 61.

[3]– المرجع نفسه، ص: 31.

وَتَأَنْقَ الضَيْمُ إِنْ أَثْرَى لَهُ وَلَدُ[1]

وفي الوصية يقول العباس لابنه حين قدّمه لعمر بن الخطاب يقول الشعبي: (عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال لي أبي: أرى هذا الرجل يعني عمر بن الخطاب يتفهمك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وإني موصيك بخلال أربع: لا تفشين له سراً، ولا يجرين عليك كذباً، ولا تطوعنه نصيحة، ولا تغتابن عنده أحداً.

قال الشعبي: فقلت لابن عباس: كل واحدة خير من ألف. قال: إي والله ومن عشرة آلاف)[2]. ومن حرصهم على أبنائهم كرهوا الموت لأجلهم خشية ضياعهم بعدهم، يقول مالك بن أحمد بن سوار الطائي في ذلك:

وَإِنّي لَأَخْشَى أَنْ أَمُوتَ وَجَعْفَر
صَغِيرُ فَيَجْفَى جَعْفَرُ وَيَضِيعُ
وَإِنّي لَأَرْجُو جَعْفَرَا إِنْ جَعْفَرَا
لَصَالِحُ أَخْلاَقُ الكِرَامِ تَبْوَعَ[3]

وهذه امرأة من بني هزّان يقال لها أم ثواب تقول في ابن لها عقها:

رَبَيْتُهُ وَهُوَ مِثْلُ الفَرْخِ أَعْظُمِه أَمْ الطَّعَامِ تَرَى فِي جِلْدِهِ زَغَبَا
حَتَّى إِذَا آضِ كَالفِحَالِ شَذَبِهِ أَبَارُهُ وَنَفَى عَنْ مَتْنِه الكَرَبَا
أَنْشَا يُمَزِقُ أَثْوَابِي يُؤَدِبُنِي أَبَعْدَ شَيْبِي عِنْدِي يَبْتَغِي الأَدَبَا[1].

---

[1] –المرجع السابق ، ص: 24.

[2]– بن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ج:1، ط:1، 1404هـ /1984م، ص: 11.

[3] هبه الله بن العديم، الدراري في ذكر الذراري، تحقيق:علاء عبد الوهاب محمد،دار السلام ،ط؛1،ت ط؛ 1404هـ/1984، ص 85.

ويعتبر العصر الأموي امتداداً لصدر الإسلام فلم يخالفه في موضوعات الأدب عامة وفي تصوير الطفل خاصة، ويقول الهيثم بن صالح في نصح الآباء لأبنائهم للتحلي بالفضائل لابنه: (يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، وإذا أكثرت من الكلام أقللت من الصواب، قال: يا أبت فإن أنا أكثرت. يعني كلاماً وصواباً، قال: يا بني ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظا منك.)[2].وفي قول الحسين بن الفضل ما يصور نباهة الأطفال ومدى جرأتهم وشجاعتهم ووعيهم، (دخل الحسين بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب أن يتكلم فزجره وقال: أصبي يتكلم في هذا المقام، فقال: إن كنت صبيا فلست من هدهد سليمان ولا أنت أكبر من سليمان حين قال له:أحطت بما لم نحط به).

وقد حظي الشعر في هذا العصر بشهرة كبيرة وتعددت مواطن تصوير الأطفال واختلفت فقد، فقيل الشعر في رثاء الأبناء وتوجع أبائهم، والتهنئة بالمولود الجديد، والتهنئة بالختان، كما استغل الشعراء موضوع الطفولة في مدح الخلفاء والأمراء للتكسب، إذ يمدح الخليفة لعنايته بالأطفال فيقول أبو تمام في الخليفة المأمون لتكفله ورعايته:

مَنْ لاَ يُحِيطُ الوَاصِفُونَ بِقَدْرِه حَتَّى يَقُولُوا قَدْرَه إِلْهَامَ

مَنَ شَرَّدَ الإِعْدَامَ عَنْ أَوْطَانِه بِالْبَذْلِ حَتَّى اسْتَطَّرَفْ الإِعْدَامَ

وَتَكَفّلُ الأَيْتَامَ عَنْ آبَائِهِم حَتَّى وَدَدْنَا أَنَّنَا أَيْتَامَ[3].

ورغم شيوع هذا النوع من الشعر في هذا لعصر إلا أنه غير مقبول عند المتلقين للمبالغة فيه، ويقول ابن الرومي في فقده لابنيه:

---

[1] حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، شرحه أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ط:1، 1418ه/1998م، ص: 136.

[2] هبه الله بن العديم، الدراري في ذكر الذراري،تحقيق: علاء عبد الوهاب محمد،دار السلام ،ط؛1404،1ه/1986م، ص: 77.

[3] الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، دار الكتاب العربي، بيروت، ج: 2، ت ط 1414 ه/1994 م، ص: 73.

مُحَمَّدَ وَعَلى فَتَتَا كَبِدِي إِذْا ذَكَرْتُهُمَا وَالعَيْنُ تَنْطَلِقُ

خِلاَنِ حَلَّ بِقَلْبِي مِنْ فِرَاقِهُما مَا كُنّتُ أَخْشَى عَلَيْه قَبْلَ نَفْتَرقْ

قَلْبٌ رَقِيقْ تَلِظَتْ فِي جَوَانِبه نَّارُ الصَّبَابَة حَتَّى كَادَ يَحْتَرقْ

وَدَدْتُ لَمْ تَم لِي حَجّي بِقُرْبِهِمَا مَا كُلُّ مَا تَشْتَهْيِهِ النَّفْسُ يَتَفِقْ.[1]

ويقول ابن الخياط حين هنأ أحد كبار رجال الدولة في زمنه بمناسبة ختان ابنه:

وَحَوَى صَغِيّرُ السّنِ غَايَاتَ العُلَى [كذا] وَصِغَّارُ أَبنَاء الكِرَامِ كِبَارُ

يُنَبي الفَتَّى قَبْلَ الْفِطَامِ بِفَضْلِهِ وَيُبَيْن عِتْقُ الخَيَّلَ وَهِي مُهَارُ

لَمْ تَلَحُظُّ الأَبْصَارَ يَوْمَ طَهُورُه إِلاَّ كُوُؤُسًا لِلسُّرُور تَدُار

فَغَدَوْتَ تَشْرَعُ فِي حَلاَلِ مُسْكِرِ مَا كُلُّ مَا طَرُدَ الهُمُّومَ عُقَارُ[2]

وكما كان للشعر بصمته كان لفن المقامة كذلك، وقد تحدث الحريري في مقاماته عن الكثير من المواضيع من بينها الطفل الذي صوره في المقامة الحلبية في صورة الطفل المبدع، وفي المقامة الصعدية في صورة العاق وشكوى والده منه، إذا يقول:(... في يوم المحفل والاحتفال إذ دخل شيخ بالي الرياش بادي الارتعاش فتبصر الحفل تَبصُّرَ نقاد ثم زعم أن له خصماً غير منقاد. فلم يكن إلا كضوء شرارة. أو وحي إشارة. ثم قال ألا ترى أن الله فهم الحكيم لسليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داوود أولى)[3]، ولم يقتصر فن الوصية

[1] ابن الرومي، الديوان، شرح أحمد حسن سبج، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ج 2، ط: 3، 1423 هـ/ 2002 م، ص:492.

[2] ابن الخياط، الديوان، حققه: خليل مروم بك، المطبعة الهاشمية، الأردن،ت ط؛ 1377هـ/1958 م، ص:89.

[3]هبه الله بن العديم، الدراري في ذكر الذراري،تحقيق :علاء عبد الوهاب محمد، دار السلام ،ط؛1، 1404هـ/1984م ،ص 64.

والشعر، والغناء لترقيص الأطفال، على عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، بل كان للعصر العباسي نصيب في ذلك على الرغم من موجة التغيير التي حلت به، وانفتاح العرب على أمم أخرى كالفرس والروم، وتلاقح اللغات، مما أدى لظهور فنون أخرى، أُضيفت لما سبق، وفي الغناء والترقيص يقول الحسن البصري رضي الله عنه لابنه:

يَاحَبَّذَا أَرْوَاحُهُ وَنَفْسُه

وَحَبَّذَا نَسِيمُهُ وَمَلْمَسُه

وَالله يُبْقِيهِ لَنَا وَيَحْرُسُه

حَتَّى يُجَرّ ثَوْبُه وَيَلْبَسُه[1]

ويقول صالح بن عبد القدوس في تصوير تربية الأبناء في الصغر والثمار التي تؤتيه:

وَأَنَّ مَنْ أَدَبْتَهُ فِي الصّبَا كَالعُودِ يُسْقَى المَاءَ فِي غَرْسِهِ

حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاضِرًا بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرَتَ مِنْ يَبْسِهِ

وَالشَّيْخُ لاَ يَتْرُكَ أَخْلاَقَهُ حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ[2]

حتى أحضر غلام. كأنه ضرغام فقال الشيخ أيد الله القاضي وعصمه من التعاضي إن ابني هذا كالقلم الرديء. والسيف الصدي. يجهل أوصاف الإنصاف ويرضع أخلاف الخلاف. إن أقدمت أحجم. وإذا أعربت أعجم. وإن أذكيت أخمد. ومتى شويت رمد مع أني كفلته مذ دب. إلى أن شب وكنت له ألطف من ربى. فأكبر القاضي ما شكا إليه. وأطرف به من حواليه. ثم قال أشهد أن العقوق أحد الثكلين...)[3]. وبهذا تختلف موضوعات التصوير

[1] المرجع السابق ، ص: 46-47.

[2] المرجع نفسه، ص: 54.

[3] الحريري، مقامات الحريري ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ، ت ط ؛1398هـ/1978م ، ص: 303.

وأسبابه إلا أن العرب ذكرت أبناءها في أشعارها و أسجاعها، وكلفت بتصوير سلوكاتهم وضبط أخلاقهم وكشف نبوغهم مما يبين القيم التربوية و تطورها من الجاهلية إلى الإسلام، وهو أمر حفظته كتب العرب ومصنّفاتها.

ومما توضّح من خلال أشعار العرب وأقوالها وفنونها نستنتج أن احْتفاء العرب ببنيها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بمعاني الشجاعة والطَّاعة واكتمال الذكاء وحسن الأدب. كما أن العرب صورت البنات بدرجة أقل وركزت في وصفهن على حُسْن الخِلْقةِ والخُلقْ، وارتبط ذكر البنين بأغراض الرثاء والفخر والمديح شعرًا، وبالتأديب والوصية في بقية الفنون ونحْصِرُ المقامة هنا دون غيرها لذُيوعها ولأن نصوصها موجودة وسَلِمَ كثير منها من الضياع. بالإضافة إلى أن العرب أحبّت ذكر الطفل وتحبيبه رغم ظروف البداوة وقسوة العيش لارتباطه في الذاكرة العربي بالتصوير الحميم المفعم بالعاطفة مما يكسر وحشة تلك الظروف.

الفصل الأول:

عناية الجاحظ بالطفولة في أدبه

المبحث الأول: العناية التربوية وأهميتها

المبحث الثاني: العناية اللغوية وأساليبها

عناية الجاحظ بالطفولة في أدبه

تميل النفس البشرية إلى البراءة بأشكالها، وتجتهد لتقدّم لهذه البراءة أسباب العيش الرغيد والعناية النفسية والأخلاقية والتربوية والدينية مهما كانت الظروف والأسباب وهو أمر لمسناه في تربية العرب لأبنائها وعنايتها بهم، ولعل أدب الجاحظ من الآداب التي صورت أشكال هذه العناية و ظروفها، مما سيأتي بيانه في هذا الفصل.

1- العناية التربوية وأهميتها:

تعد التربية أحد العوامل الأساسية المساهمة في بناء الفرد، وتكوين شخصيته وصقلها، فهي معيار قياس سلامة التكوين الاجتماعي، بها يعرف مستوى كل مجتمع وأمة، فالتربية عملية إنسانية محضة، تميز بها الإنسان عن باقي المخلوقات، ويبرز دورها وتؤتي ثمارها مع فئة الطفولة، فهي بذور تغرس لتنمو وتزدهر إلا أن طريقة غرسها والعناية بها حتى تنمو وتزدهر تختلف باختلاف المجتمعات، ونحن في دراستنا هذه بصدد التعرف على التربية في المجتمع العربي القديم، فالعرب أهل بدو وحضر، واختلاف بيئاتهم سيؤدي حتما إلى اختلاف تربيتهم لأبنائهم، وفي ذلك يقول عبد الله عبد الدائم: (ولم يعرف عرب البادية في الجملة معاهد للتعليم، لسهولة حياتهم وبساطتها، بحيث كان في وسع النشء أن يحصل ما يحصله بالمحاكاة والاشتراك في الأعمال التى يقوم بها آباؤه ومن هم أكبر منه سناً.)[1]، هكذا ربى أهل البادية أبناءهم وإذا ما تحدثنا عن عرب الحضر يقول فيهم عبد الدائم: (أما أهل الحضارة في العصر الجاهلي فقد كانت لهم مدارس ومعاهد للتربية والتعليم)[2] ، وعلى الرغم من أن العرب لم يكونوا بذلك القدر من الوعي والعلم، إلا أن تربيتهم لأبنائهم تستهدف بث العادات الفاضلة والصفات الخلقية الحميدة.

[1] –عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ، دار المعلم للملايين، بيروت –لبنان، ط؛1، ت ط؛ 1973، ص137

[2] الرجع نفسه ،ص 137

فالمرأة العربية شديدة الصلة بأبنائها، إذ وصل حدّ حرصها في تربيتهم إلى إعداد نفسها لهم، مثل أميمة أم تأبط شرا التي عدّت خير مثال للتربية البدنية قبل الخلقية وقد سئلت عن أمر تربيتها لولدها فقالت: (والله ما حملته تضعاً ولا وضعاً ولا ولدته يتناً ولا أرضعته غيلاً ولا أبته مئقًا* ولا أنمته تئدًا ولا سقيته هدبدًا ولا أطعمته قبل رئة كبدًا)[1] ، وإذا أمعنا في هذا القول الذي تميز بالدقة والشمولية، والذي حقق البلاغة في أعلى مستوياتها، تبين أنّ ما قالته هذه المرأة قد عالله وطبقه الطب الحديث. ففي قولها الحمل التُّضع: أن تحمل المرأة قبيل الحيض. والوّضع أن تحمل بعد الحيض مباشرة. وفي كلتا الحالتينيضرّذلك بالجنين وتضعف تركيبته في ما جاء من تفسير هذا القول وبيانه. أما ولادة الطفل يتناً فأن يولد منكّساً، رجلاه قبل رأسه، وهنا قد تصاب عظام الطفل الناعمة بتأثير من الضغط الذي ينالها فيتأثر بها الطفل مهما طال به العمر، وامتدت بأيامه الحياة. وأما الإرضاع غيلاً فأن ترضع وليدها وهي حامل واللبن هنا يكون فاسدا، ويكاد يكون مسموما وقد يكون قاتلاً.

وأما القيل الذي لا تمنعه عن طفلها فمعناه أن يتناول اللبن وقت اشتداد الحرارة وهو يطفئ حر الجسم. وأكدت أنه لا يجب أن يعقب تناول اللبن شرب الماء لأنه يضرّ بالجسم. وأما المبيت مئقا فأن يقضى الطفل ليله غضبانا أو حزيناً. وفي ذلك تأثير سلبي على نوم الطفل ونفسه.

لقد عظم الإسلام مكانة الطفل فهو زينة الحياة الدنيا كما ذكر المولى في كتابه ويقول فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم: (الولد من ريحان الجنة)[2]، وتكمن أهمية العناية بالتربية، في إنشاء جيل صالح يقود المجتمع وأمته إلى الخير، يقول أحد الحكماء: (من أدَّب

* –جاء في اللسان، **مَأَقَةُ:** شِبْهُ الفُواقِ ، كأنه نَفَسٌ يَنْقَلِعُ من الصَّدْرِ عندَ البُكاءِ والنَّشِيجِ ، مَئِقَ وامْتَأَقَ. بمعنى لا بات يشجأ باكيا من غضب أو لحاجة. والتّئد المتعجّل، والهدبد اللبن الخاثر، وهي ترى في ذلك جميعا مما لا يجب أن يتعرض له الطفل في صغره.

[1] عبد الله العفيفي ،المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها،مكتبة الثقافة ،المدينة المنورة –السعودية ،ج 1،ط؛2،ت ط؛1350هـ/1932م،ص 77

[2] نقلاًعن الدراري في ذكر الذراري ،أورده الهيثمي في مجمع الزوائد،البر والصلة ،باب ماجاء في الأولاد،ج 8،ص155.

ولده صغيرًا سرَّ به كبيرًا.)[1]، فكانت العناية بالطفل وسيلة لإعداده إعدادا صلبا، يقاوم به مصاعب الحياة، ومشقة العبادات، وبروح متفائلة بتحقيق أهداف تربيتهم، ومن أمثلة ذلك تقول هند في ابنها معاوية: (ونظر رجل إلى معاوية وهو غلام صغير، فقال: إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومه فسمعته أمه هند، فقالت: ثكلته إذا إن لم يَسُدْ إلا قومه)[2]، وقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم في العناية بتربية النشء، إذ أحاط بجميع جوانب الحياة فسعى لبث القيم الإنسانية وغرسها في أبناء المجتمع، ومن بينها إفشاء السلام فكان عليه الصلاة والسلام يمر على صبية يلعبون في الشارع يلقي عليهم السلام، (حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حميد الطويل، عن أنس بن مالك قال: كنت مع الغلمان فمر علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم علينا)[3]. وكذلك في بر الآباء حيث يصف عمر بن ذر كيف برّه ابنه وهذه تربية النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل لعمر بن ذر كيف بر ابنك بك؟ قال:(ما مشيت نهارًا قط إلا مشى خلفي، ولا ليلا إلا مشى أمامي ولا رقى سطحاً وأنا تحته)[4]، كما نجده يوصي الآباء ويحذرهم من عدم العدل بين أبنائهم فيقول: (حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير، عن مغيرة، عن الشعبي، قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اعدلوا بين أولادكم في النحل، كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف)[5]. لقد أسس النبي صلى الله عليه وسلم مجتمعا صلبا بعيدًا كل البعد عن

[1] بن عبد ربه، تأديب الناشئين، تحقيق :محمد إبرهيم سليم، مكتبة القرآن، ص: 121.

[2] بن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق :مفيد محمد قميحة ،دار الكتب العلمية ،بيروت –لبنان ،ج 2،ص: 146.

[3] أبي الدنيا، العيال، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، دار ابن القيم، السعودية، ط؛1، ت ط ؛1410هـ/1990م، ج؛1، ص: 450.

[4] بن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق :مفيد محمد قميحة ،دار الكتب العلمية ،بيروت –لبنان ،ج 2،ص: 268.

[5] أبي الدنيا، العيال، تحقيق :نجم عبد الرحمن خلف ،دار ابن القيم ،السعودية ،ط؛1، ت ط ؛1410هـ/1990م ،ص: 172.

الهشاش الأخلاقية، وما ميزه بذلك المنهاج القويم الذي اتبعه، وتمكن من بناء حضارة عريقة قادت العالم بأسره إلى أن اشتدت عليها الأمم وأصاب الوهن أبناءها.

وكما ذكر سابقا فإن منهاج التربية الإسلامية امتد إلى نهاية الحقبة العباسية مما أصّل في المجتمعات عبر تلك السنوات الاهتمام والعناية بتربية الأطفال، ويترجم لنا ذلك الأديب الذي اشتهر من بين أدباء هذا العصر والذي عرف عنه سعة إطلاعه، تاركاً خلفه ثروة علمية هائلة، صور من خلالها وضع العرب آنذاك من بينهم الأطفال كما سبق الذكر، أبو عثمان عمر بن بحر المكنى (الجاحظ) والذي اصطفينا من آدابه البخلاء، التاج في الأخلاق، المحاسن والأضداد نصوصا لتكون محل دراستنا، حيث لم يخص الجاحظ الأطفال في أدبه بمؤلفات خاصة أو بأسلوب خاص، على أنهم فئة مستقلة، على مستوى معين من المعرفة أو حتى أسلوب المعاملة معها، وذلك لفارق العمر بينها وبين الكبار، وقد صور الجاحظ الطفل في ثنايا موضوعاته وأدبه الذي خص به الكبار. إذ وضعنا أمام هذا مشاهد تركزت حول معاملة الآباء لأبنائهم وطرق تربيتهم.

ويصور لنا الجاحظ في النصوص المنتخبة، كيف كان الآباء يحرصون على غرس القيم التربوية، منها آداب الاستئذان، يقول: (ويقال أن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه باب، فكان إذا أراد الدخول عليه قال: يا جارية انظري هل تحرك أمير المؤمنين)[1]، إذ يتوضح من خلال هذا القول صورة الطفل المؤدب والملتزم بآداب الاستئذان حتى وإن كان المستأذن أباه. ويقول في هذا الباب أيضا: (فإنه يقال أن يزدجرد ابراهيم ابنه بموضع لم يكن له، فقال: مررت بالحاجب؟ قال: نعم. قال: وعلم بدخولك؟ قال: نعم.)[2]، كما يبين هنا اصرار الولد وتأكيده على أن يلتزم ابنه بهذا الخلق الفضيل، ويقول كذلك (وهكذا ذكر لنا أن موسى

[1] الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط: 1، 1322هـ/1914م، ص: 125.

[2] المصدر نفسه، ص: 125.

الهادي دخل على أمير المؤمنين المهدي، فزجره، وقال: إياك أن تعود إلى مثلها إلا أن يفتح بابك)[1]، ونجده هنا يصور لنا صورة الطفل غير المهذب الذي يقتحم المكان دون استئذان، والوالد المربي يحذره من تكرار فعل كهذا. وإذا ما تحدثنا عن الوصايا التى ارتكزت عليها العرب كوسيلة للتربية نجد الجاحظ يصور علقمة الوالد وهو يخوض في أدق تفاصيل الصحبة الصالحة لولده التى يجب اتباعها ومصاحبتها يقول: (اصحب من إذا مددت إليه يدك لفضل مدّها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن بدت منك ثلمة سدّها، واصحب من لا تأتيك منه البوائق ولا تختلف من الطرائف ولا يخذلك عند الحقائق.)[2] ومن خلال هذا القول يتضح جليا اهتمام العرب بتربية أبنائهم على اعتبار قول الصاحب ساحب. كان لزاماً على الآباء توعية أبنائهم ونصحهم وتعليمهم أهم الأمور التى يختار عليها الصاحب ومن القيم الإنسانية أيضا التى تجب عن المرء أن يتحلى بها في معاملاته مع الناس، واجب التعزية، وفي هذا النص يصور لنا الجاحظ مشهد الولد المعزي لأبيه، يقول: (وفيما يذكر عن عبد الملك بن مروان أنه مات بعض بنيه وهو صغير، فجاءه الوليد فعزاه)[3].

هكذا جال بنا الجاحظ بين النصوص ومختلف الموضوعات التى صور فيها عناية العرب بتربية أبنائها بأسلوبه الطريف المشوق الذي لا يخفى على قرائه.

[1] المصدر نفسه، ص: 125.

[2] الجاحظ،، المحاسن والأضداد، تصحيح: محمد أمين الخانجي الكتبي، مطبعة السعادة، ط 1،ت ط ؛1224م، ص 43.

[3]الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط 1،ت ط؛ 1322هـ/ 1914م، ص: 91.

2- العناية اللغوية وأساليبها

لم تقتصر العرب على العناية التربوية فحسب، فقد هذبت القريح اللغوية وصرفت لها عناية كبيرة، وقد كانوا حريصين كل الحرص على أن يكون أبناؤهم ذووا فصاحة وبيان، سواء أهل بادية أو حضر، فكانت لهم نوادٍ يجتمعون فيها،(أما مجالس الآداب فكانوا يعقدونها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار والبحث في بعض الشؤون العام)[1]، كما كانت لهم أسواق في هذا الأمر (وأما الأسواق فقد كانت أمكنة يجتمع فيها الناس في أوقات معينة للبيع والشراء، وكان العرب يحضرونها بما عندهم من المآثر والمفاخر فينشدون الشعر ويلقون الخطب ويتحاكمون إلى قضاة نصبوا أنفسهم لنقد الشعر ومن أشهر هذه الأسواق (عكاظ) قرب الطائف و(مجنة) قرب مكة، و(ذو المجاز) وعلى فرسخ من عرفه، وغيرها من الأسواق.)[2]وعلى الرغم من فصاحة عرب الحضر واهتمامهم باللغة إلا أنهم أبوا إلا أن يستزيدوا من أهل البادية،(وكان العلماء والإخباريون الحضريون يرحبون بمقدم هؤلاء البدو الأذكياء ليفيدوا من علمهم ورواياتهم، وكان كثير من طلاب العلم يقصدون تلك المجالس ليدونوا ما يجري فيها من الأحاديث، أو لينقلوا عن علماء البادية ما يحفظون من أخبار قبائلهم وأنسابها وأشعارها ومنثورها)[3]. ولم يكتفوا بهذا فقط، (وكان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد أن يلتمسوا له مرضعة في غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له)[4]، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرجع فصاحته إلى منبته فيقول: (أنا أعربكم ولدت في قريش واسترضعت في بني سعد، وقال له أبوبكر: ما رأيت أفصح منك يا رسول الله. فقال

[1] عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ،دار العلم للملايين ،بيروت –لبنان ،ط؛1،ت ط؛1973، ص:173.

[2] المرجع نفسه، ص: 137

[3] محمد أسعد طلس، التربية والتعليم في الإسلام، ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص: 56.

[4] على بن برهان الدين، إنسان العيون، المطبعة الأزهرية مصر، ط؛3، 1351هـ/1932م، ص: 96.

له: ما يمنعني ولدت في قريش وأرضعت في بني سعد)[1]، وناهيك عن إرسال أبنائهم للبادية، كذلك كانوا يولون الشعر أهمية بالغة حتى نسب إليهم، (قيل لسعيد بن المسيب: إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر، فقال: نسكوا نسكاً أعجمياً)[2]، ولأنهم يرون في رواية الشعر وقرضه كسب العديد من الخصال أوصوا به لتعليم أبنائهم ويقول في ذلك الزبير بن بكار:(سمعت العمري يقول: رووا أولادكم الشعر فإنه يحل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحض على الخلق الجميل)[3]، بهذه الفوائد التى يتحلى بها الشعر منحته مكانة عالية عند العرب، حيث كان لصيقاً بهم، وارتبطوا به ارتباطاً وثيقاً وورثوا ذلك لأبنائهم، حتى وصل بهم الحال حين تقرأ قول لا تدري أهو لأحد علمائهم أو لزعيم قبيلتهم أم لصبي من صبيانهم، فقد وظفوا اللغة وسيلة من وسائل التربية، حتى فقهها أبناؤهم وسهل تواصلهم مع آبائهم، فهذا لحضين بن المنذر يهجو ابنه. قال وقرأت على أبي عمر قال: أنشدنا أحمد بن يحي عن ابن الأعرابي لحضين بن المنذر يهجو ابنه غياظا:

نَسى لما أوليت من صالح مضى وأنت لتأنيب على حفيظُ

تلين لأهل الغل والغمر منهم وأنت على أهل الصفاء غليظُ

عدوك مسرور وذو الود بالذي أتى منك من غيظ على كظيظُ

وسميت غياظا ولست بغائظ عدوا ولكن الصديق تغيظُ

فلا حفظ الرحمن روحك حية ولا هي في الأرواح حين تفيظُ[4]

[1] المرجع نفسه، ص: 96.

[2] ابن رشيق، العمدة،تحقيق :محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل ،ج 1،ط؛5 ،ت ط؛1401هـ/1981م،ص: 29

[3] المصدر نفسه، ص: 29

[4] أبي على القالي، الأمالي، دار الكتب العلمية ،بيروت –لبنان، ج 2،ص: 198.

وبقى العرب على هذا الحال من ارتباطهم بالشعر ولم يتخلوا عنه حتى بعد بزوغ شمس الإسلام، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين)[1]، ولم ينقص الإسلام من قيمته بل زاد في دعمه، بالمعجزة الإلهية للقرآن الكريم ومع انتشاره ازدادت آفاق تعليم اللغة، وأماكن تعليمها كالكتاتيب والمنازل والمساجد، وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم الآباء والأمهات على تعليم أبنائهم علوم الدين وحفظ القرآن الكريم وقال في ذلك: (حدثني عبد الله بن محمد بن بحير الرازي، حدثنا عمرو ابن جميع، عن عائشة، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من علَّم ولدًا له القرآن قلده الله – عز وجل يوم القيامة بقلادة يعجب منها الأولون والآخرون)[2]. ولم يكن حفظ القرآن بالأمر الهين لا من حيث تكوين الأبناء ولا من درجة الحفاظ عند الله إذ حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا شيبان، حدثنا جعفر، حدثنا مالك بن دينار، قال بلغنا أن الله –عز وجل يقول: (إني أهم بعذاب خلقي، فأنظر إلى جلساء القرآن وعمار المساجد وولدان الإسلام فيسكن غضبي)[3]. إن تكوين الأبناء لغوياً تطلب جهودًا تظافر فيها الجميع لتحقيق المبتغى، من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وترغيب وترهيب المولى عز وجل، وتعليم المعلمين في الكتاتيب، وحرص الآباء في تعليم أبنائهم لنيل الحسنيين الرفعة في الدنيا والآخرة، وهذا والد يوصي ابنه وهو في مجلس علم. قال وحدثنا أبو بكر قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال: سمعت رجلا في حلقة أبي عمرو بن العلاء يقول: (قال الحسن لابنه: يا بني، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثا وإن طال حتى يمسك)[4]، كما كانوا يتحسسون

[1] ابن رشيق، العمدة ،تحقيق :محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الجيل ج 1،ط؛5، ت ط؛1401ه/1981م،ص:29

[2] أبي الدنيا، العيال،تحقيق:نجم عبد الرحمن خلف ،دار بن القيم ،السعودية ،ج 1،ط؛1،ت ط؛1410ه/1990م، ص:478.

[3] المرجع نفسه، ص: 487.

[4] أبو علي القالي، الأمالي،دار الكتب العلمية،بيروت –لبنان،ج 2، ص: 188.

ويحترسون من أي خطأ لغوي يصدر من أحدهم سواءً من الصبية أو الكبار، فهذا الشعبي وما حدث له مع الحجاج (دخل الشعبي على الحجاج، فقال له: كم عطاءَك؟ قال: ألفين. قال: ويحك كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: فلم لحنت فيما لا يلحن فيه مثلك؟ قال: لحن الأمير فلحنت، وأعرب فأعربت ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه، فأكون كالمقرع له بلحنه، والمستطيل عليه بفضل القول قله فأعجبه ذلك منه ووهبه مالاً)[1]، وعلى هذا الحال بقي اللسان العربي محافظًا على اللغة من أي شائبة قد تشوبه وما إن بانت بوادر العصر العباسي حتى ازداد الاهتمام بالتعليم فصار التعليم في حوانيت والوراقين، وقصور الخلفاء والعظماء وفتحت مدارس خاص لتعليم الصبيان وهذه محاولة لانقاذ اللغة من الإجهاض مع اختلاط العرب بالعجم وظهور المولدين على هذا النحو ربوا أبناءهم، وروضوهم على فصاحة اللسان وحرمة اللغة.

وإذا ما تحدثنا عن العناية اللغوية وأساليبها، نجد الجاحظ لم يورد العناية اللغوية بشكل صريح ومباشر،وإنما تظهر ملامحها من خلال قراءتك للنص، وقد اختلفت من نص لآخر. فهذا صبي أهل مرو، حين تقرأ قصته، تجزم حقيقةً أن هذا المجتمع على عناية لغوية بالغة ويتجسد ذلك في جرأة الصبي وشجاعته، و جاهزيته في الرد على الرجل الذي يخاطبه يقول: (يقول أحمد بن رشيد: كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبي له صغير يلعب بين يديه، فقلت له، إما عابثاً وإما ممتحناً: أطعمني من خبزكم قال:لا تريده، هو مر، فقلت: فاسقني من مائكم. قال: لا تريده، هو مالح ، قلت: هات لي من كذا وكذا. قال: لا تريده، هو كذا وكذا إلى أن عددت أصنافاً كثيرة، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه)[2]، وفي هذه القصة كان البي مجيبا دون حاجة إلى بيان فكان يزن الكلمة من الكلمة ويردّ بقدرها دون إطالة شرح أو تفسير وفي ذلك قناعة بأنه متيقن من صدق قوله، سواء قصد الصدق أو

[1] بن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق :مفيد محمد قميحة ،دار الكتب العلمية ،بيروت –لبنان،ج 2، ص: 6

[2] الجاحظ، البخلاء، تحقيق: طه الحاجرى، دار المعارف، القاهرة، ط؛7، ص: 18.

الكذب. وتظهر ملامح العناية اللغوية أيضا في قصة أبو عبد الرحمن وهو يوصي ابنه (أى بني إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق، وانفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير. والعشرات تفتح عليك أبواب المئين، والمئون تفتح عليك الألوف، حتى يأنى ذلك على الفرع والأصل)[1]، فالحديث مع الصبي في حقل الإقتصاد ومن المفردات الدالة على ذلك قوله القراريط، الدوانيق، الدراهم، الدنانير، العشرات، المئين، المئون، الألوف. كيف له أن يفقه ذلك إن لم يكن له سعة اطلاع أو معرفة؟ وكيف لوالده أن يخاطبه بهذا المستوى إن لم يكن يعلم أنه يفهم كل ما يتحدث به والده، كما تتبين لنا الفصاحة في اللغة لابن علقمة بن ليث، إذا تعد هذه أحد أساليب العناية اللغوية، فاستيعاب الابن لما يتحدث وينصح به أبوه، لدليل قاطع على فصاحته واهتمام مجتمعه باللغة المتغلغل في جذورهم، (قيل: قال علقمة بن ليث لابنه: يا بني، إن نازعتك نفسك إلى الرجال يوماً لحاجتك إليهم فاصحب من أن صحبته زانك، وإن تخففت له صانك، وإن نزلت بك مؤونة مانك، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت شدد صولك...)[2]، بهذا الأسلوب غير المباشر رصد لنا أديبنا درجة الرصانة اللغوية في المجتمعات العربية، وصورها بأبهى وأدقّ تفاصيلها.

من بين ذلك جميعا يتبين أن العناية التربوية لا تكاد تنفصل على العناية اللغوية في المجتمعات العربية القديمة حيث كانت تلك الأمة تحتفي بلغتها وتلقنها صغارها، و تسعى لتهذيبهم من خلالها، وإننا لنجد من الأمثلة الكثير في مصنّفات العربية من الأمثال والحكم العربية والأقوال التي تصف فصاحة العرب و أبنائهم وهو أمر مسلّم لنقاوة تلك البيئة من المؤثرات التي تنهك اللغة في أيامنا هذه.

[1] المصدر السابق، ص: 106.

[2] الجاحظ، المحاسن والأضداد، تصحيح:محمد أمين الخانجي الكتبي ،مطبعة السعادة،ط؛1،ت ط؛ 1224هـ ،ص 43.

الفصل الثاني:

البعد الفني لتصوير الطفل في أدب الجاحظ

- **المبحث الأول: أشكال تصوير الطفل**
- **المبحث الثاني: تخير المعجم اللفظي المناسب**
- المبحث الثالث: واقعية التصوير و محدودية الأخيلة

البعد الفني لتصوير الطفل في أدب الجاحظ

لا يكاد يخفى على قارئ الأدب العربي القديم ما يتمتع به من حسن بيان ودقة تعبير وبلاغة، خلّفت إرثا أدبيا منقطع النظير، حيث سطّر تاريخ العربية نبوغ أدبائها بما جادت به أقلامهم التي برهنت إلى بداية عصر الانحطاط عن صلة اللغة العربية بصفاء القريحة الذي تأثّر عبر الزمان، ولعلّ الجاحظ مثال مهم من أمثلة أولئك الأقحاح الذين أجادوا فصاحةً وبلاغةً وبيانًا وتصويراً في شتى الموضوعات، وفي وصفه للطفل أيضا.

1-أشكال تصوير الطفل وأدواته:

1-1 أشكال تصوير الطفل:

عرف الأدب العربي عدة تغيرات وتحولات، عبر العصور التي مر بها، متأثرا في ذلك على ركيزتيه من المنظوم والمنثور، ومن العوامل التى ساهمت في ذلك عامل الدين (تأثر العرب بالإسلام)، والزمن، واحتكاك العرب بغيرهم من الأقوام من فرس وهنود، ويونانيين. وعلى الرغم من اختلاف نقاد العرب حول قضية المنظوم والمنثور ومسألة أفضلية المنظوم، إلا أننا نجد النثر قد سيطر على زمام الأمور واكتسح الساحة الأدبية في العصر العباسي. ومرد تطوره وهيمنته إلى حمل أوانيه ثقافات أجنبية عدة، فبهذا التطور فتح الأبواب على مصارعها، فتعددت فنونه وأنواعه، ويذكر عبد الغفور الكلاعي أنواع الفنون النثرية من منظوره فيقول:(وجعلت أبحث عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها: الترسل، ومنها التوقيع، ومنها الخطبة، ومنها الحكم المرتجلة والأمثال المرسلة، ومنها المُورَّى والمُعمَّى، ومنها المقامات والحكايات، ومنها التوثيق، ومنها التأليف.)[1]،وعلى اعتبار رأي الكلاعي في أنواع النثر يمكننا أن نصف العصر العباسي بعصر الكتابة وقد اشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل ومن بينهم (ابن المقفع، والكاتب عبد الحميد، ويوضع الجاحظ على

[1] عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت،لبنان، ص 95.

رأس كتاب العصر العباسي غير مدافع ولا منازع)[1]. ومن المحقق أن الجاحظ نال شهرة مدوية في عصره وبعد عصره، إذ نجد النقاد والأدباء يلهجون دائمًا بمدحه والثناء عليه حتى ليقولون إن كتبه رياض زاهرة ورسائل مثمرة لكثرة مؤلفاته، ولم يترك الجاحظ موضوعًا إلا وكتب فيه، بأي شكل من الأشكال، لذلك نجده شمل جُلَّ الفنون النثرية، وهذا ما سنستشفه من خلال مجموعة دراسة بعض نصوصه حول الطفل، فما الأشكال التي صوره الجاحظ بها؟

انكب الجاحظ على صناعة الكتب وشَّق طريقه في مجال العلم والتأليف، فتفرد بأسلوبه عن باقي كتاب عصره فكانت له صبغة خاصة، حيث عرف عنه القصص الساخر الممزوج بالحكمة، وتجلى ذلك في بخلائه، ولقصة صبي أهل مرو ما يبرهن على ذلك. فقد صور الجاحظ الطفل في شكل قصصي حواري شيق، حيث أنه حقق هدفه وغايته منها بطريقة غير مباشرة، ويتضح الأسلوب القصصي بداية في قوله:(كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبي له صغير يلعب بين يديه.)[2]، ويتضح من الاستهلال عدم حاجة الجاحظ لصيغ الاستهلال السردي التي شاعت في عصره والتي وردت كثيرا في حكاياته كقال فلان وفي قديم الزمان، وأخبرني فلان، وزعموا أن...، وغيرها من الجمل الاستهلالية التي يتصل وجودها بدرجة التخييل التي تتحكم في خيوط الحكاية. ولعل هذا الاستهلال أيضا يمثّل شهادة الجاحظ في أهل مرو حيث يقدّم مشهدا واقعيا مؤطرا في الزمن الماضي بطريقة مباشرة مستعملا ضمير المتكلم، بما لا يدع مجالا للشك في صدق الخبر المسرود، كما أن النص الوارد قصير جدًا لا يتجاوز ستة أسطر، الشأن الذي لم يحمل الجاحظ إلى استدعاء صيغة استهلال سردي تغرق في حضور التخييل وتطيل زمن السرد.

[1] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، ط ؛10، ص:154.

[2] المرجع نفسه، ص 18.

ويسترسل مقدّما الحكاية، (فقلت له، إما عابثًا وإما ممتحنًا: أطعمني من خبزكم، قال: لا تريده، فقلت: فاسقني لبنكم، قال: لا تريده.. إلى أن عددت أصنافاً كثيرة، ذلك يمنعنيه ويبغضه إليّ.)[1]، وظهرت ملامح فطنة الصبي في مضمون الحكاية التي أسست لملامح القصة العربية القصيرة من خلال احتوائها على بعض العناصر الفنية من: حدث، وشخصيات، وزمان ومكان، وعقدة، بالإضافة إلى الحل الذي ظهر في نهاية القصة، حين بقي الرجل يجادل الصبي ولم يطعم ولم يشرب. وبين طيات الخطاب الساخر تنزلق ثقافة القوم وتتبين سلوكات البشر التي استوقفت الجاحظ مليا وكانت محطا لتهكّمه من العشائر والأقوام، وإن تخلل ذلك بعض المبالغة على سبيل الفكاهة. أن مثل هذه النصوص القديمة وبخاصة التي قدّمها الجاحظ تمثل (حاصل مرحلتي، مرحلة تدوين المرويات الشفوية، ومرحلة الإبداع والتأليف، لذلك يصعب علينا بدقة الفصل بين بناها السردية)[2] لكنها تمثل ومضات قصصية بالمعنى الحديث، وتختزل أفكارا وثقافة خاصتين بالزمان والمكان الذين صدرتا عنه، لذلك تعتبر الخصائص البلاغية كالإيجاز، والدقة والوضوح عبارة بلاغية ملازمة للخطاب القصصي العام، ولمثل هذه الخطابات التي يقصد من خلالها تمرير الرسائل مضمرة بين أسطر النص، وفي ذلك فذاذة لغوية وفنية عرفت عن الجاحظ وأدبه.

ولم تكن القصة الفن الوحيد الذي انتخبه الجاحظ لذكر الطفل فقد تخيّر فنا آخر هو الوصّية (فهي فن نثري عرفه العرب قبل الاسلام إذ كانوا يقدمون لأبنائهم وأبناء قبائلهم خلاصة حكمتهم وتجاربهم في الحياة ولما جاء الاسلام ازدهر النثر الفني في مجالاته كافة فكان الاسلام بحق السبب الأول في ازدهار النثر العربي فكانت الوصية من بين هذه الفنون التى

[1] المرجع السابق، ص:18.

[2] –عقيلة بعيرة، بنية الخطاب السردي في بخلاء الجاحظ، مذكرة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012، ص:39.

اثراها الإسلام مادة ومنهجًا و اسلوبا)[1]،وتنوعت المجالات التى كتبت فيها فجاءت دينية، وسياسية، واجتماعية، وثقافية. (وبدأت تأخذ الوصايا والمواعظ أبوابًا مختلفة في الحياة تتسع باتساع المجتمع وامتداده.فزادت الوصايا والمواعظ للأبناء سواء من الخلفاء أو القواد أو غيرهم وأصبحت تحمل التوجيه التربوي المبني على التجارب والحاجة لرعاية المصالح من ملك وسيادة وغير ذلك)[2]. وامتد هذا اللون من الوصايا التى يضع فيها الكاتب خبرته ليسنّ للكتابة سننا، وامتد هذا للون في العصر العباسي، كما تجده عند الجاحظ وابن المقفع وغيرهما. فنما نموًا مطردًا في هذا العصر. وفي كتب الجاحظ العديد من الوصايا منها ما خصص لها مؤلفا خاصا كرسائل الإخوان، ومنها ما هي موجودة في ثنايا مؤلفاته، ليكون فن الوصية أحد أشكال تصوير الطفل عنده فجاءت الوصية في المجال التربوي والتوجيهي، إلا أن موضوعاتها مختلفة. فقد وردت في البخلاء، تتضمن جانب المعاملات، بأسلوبه المعروف بالابتعاد عن التكلف يصور لنا وصية أب لابنه. كيف يتعامل مع النقود، وما تأويلها وما سيؤول إليه حال صاحبها. على منوال البخلاء طبعًا. فيقول بداية: (أى بني إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم.)[3]، ويتضح من خلال قوله أن إنفاق النقود مهما كان المبلغ زهيدا سيؤدي إلى ما هو أكثر في الإسراف والإنفاق حتى يحدث، كما قال: (يأتى ذلك على الفرع والأصل ويطمس على العين والأثر)[4]. ويوصيه أيضا في وصفه لمن ينفق النقود ما يكون مآله يقول: (إذا أنفقه في غير خلف، وأخرج إلى غير بدل، بقى مخففًا معدمًا، وفقيرًا مبلطًا متحرج المخارج وتدعوه الضرورة إلى المكاسب الرديئة والطعم الخبيثة. والخبيث من الكسب يسقط العدالة، ويذهب

[1] علي حسين محمد التمر، الوصايا في عصر صدر الإسلام كلية التربية، جامعة الموصل، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد: 20، ع: 01، كانون الثاني، 2012، ص:206.

[2] عدنان علي رضا النحوي، أدب الوصايا والمواعظ، دار النحوي، ط ؛1، ت ط ؛1418 هـ/1998 م، ص:196.

[3] الجاحظ، البخلاء، تحقيق :طه الحاجرى ،دار المعارف ،القاهرة ،ط؛7،ص: 106.

[4] المصدر نفسه، ص: 106

بالمروءة، ويوجب الحد، ويدخل النار)[1]، فهذا أسلوب البخلاء في تربية أبنائهم وكذا أسلوب الجاحظ في تصويرهم، وفي المحاسن والأضداد يبين صورة أخرى لموضوع الصحبة التي تعد من أولى اهتمامات النفس البشرية، فها هو يصور وصية علقمة لابنه، كيف يختار صحبته فيقول: (يابني، إن نازعتك نفسك إلى الرجال يومًا لحاجتك إليهم فاصحب من أن صحبته زانك وإن تخففت له صانك، وإن نزلت بك مؤونة مانك، وإن قلت صدق قولك وإن صلت شدد صولك.)[2]، قدم الجاحظ في هذا الجزء من الوصية، وصف الوالد لابنه الصاحب الذي يكون أهلا لصحبة، حيث ركز في قوله هذا على مساندة الصاحب لصاحبه، في الأمور المادية. أما عن الجزء الثاني في الوصية فقد كان يلامس المعنويات ويتبين ذلك في قوله: (اصحب من إذا مددت إليه يدك لفضل مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن بدت منك ثلمة سدها)[3]. أما الجزء الثالث فيقول فيه: (واصحب من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك من الطرائف ولا يخذلك عند الحقائق)[4]، ومن خلال هذا القول ندرك أن الجاحظ صور نوعين من الصحبة –على حد قول الوالد–، ففي الجزء الأول والثاني ذكر الصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة التى يجب أن يتحلى بها الصاحب وهنا يقتصر على النوع الأول الذي يكون سندًا لك في الحياة وخير معين لك أما النوع الثاني فقد حذره منه ومن المحن التى يجلبها إليه.

وهذا موضوع آخر من موضوعات الوصايا التربوية التى اتحفنا به إمام الأدباء (الجاحظ)، وهو موضوع تربوي وتعليمة من تعاليم ديننا الحنيف. وهي التعزية، وفي هذا المقام، تبرز لنا براعة الجاحظ في تصويره لطفل في شكل الوصية، ففي هذه الوصية يبين لنا أسلوب مخالف

---

[1] المصدر السابق، ص: 106.

[2] –الجاحظ، المحاسن والأضداد، تصحيح ؛محمد أمين الخانجي الكتبي، مطبعة السعادة، ط؛1، ت ط؛1224هـ، ص: 43.

[3] –المصدر نفسه، ص:43.

[4] –المصدر نفسه، ص:43.

لما سبق من الوصايا، إذا يصور فيها زجر الوالد لابنه وهو يعظه حين قدم إليه وعزاه: (وفيما يذكر عن عبد الملك بن مروان أنه مات بعض بنيه وهو صغير، فجاءه الوليد فعزاه)[1]،فكان رد الوالد قاسيا فقال له: (يا بني مصيبتي فيك أقدح في بدني من مصيبتي بأخيك ومتى رأيت ابنًا عزى أباه؟)[2]، وبذلك يضيف هذا النص أسلوبًا آخر من أساليب التربية الذي صوره شكل من أشكال الفنون الأدبية (الوصية) لتتعدد الأساليب الواردة فيها بتعدد موضوعاتها، وهذا ما رمى إليه الجاحظ.

1-2 أدوات التصوير:

ولأن التصوير فطري في الإنسان، فهو المصوّر مشغوف دائمًا بنقل ما شاهده، أو ما يريد التعبير عنه، ولأن الأدب على حد تعبير "جوركي" هو العين المبصرة للعالم كله، كانت للصورة الفنية اللغوية مزية في ذلك (فالصورة الفنية اللغوية تتميز بأن اللقطة التى يسجلها الفنان في وضع معين للشيء تضفي حياةً على ما تصوّر، ولا تثبته في وضع معين جامد، بل هي تمنحه من الحركة واللون والإيقاع، ما يجعله ربما أجمل من واقعه، وأكثر من ذلك أن المصور الفني يضفي من روحه وذوقه وثقافته على الصورة الفنية ما يعجز المصور بالآلة عن الإتيان به.)[3]، وكما للرسام ريشة وأدوات و لوازم للرسم، كذلك الأديب له أدوات ولوازم جعل منها مكونات طيعة لرسم صوره، وقد سلك العرب قديمًا منهجًا في استخدام أدوات التصوير حين (استعملوا جميع ألوان البيان كما نعرفها الآن، وأتى استعمالهم لها طبيعيًا لا تكلف فيه، فما كان من هم العربي أن يأتي بتشبيه أو استعارة أو كناية، وإنما كان همه الأول والأخير أن ينقل ما يعتمل بنفسه وخاطره نقلا دقيقًا إلى غيره بحيث يتأكد أن

[1] – الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: أحمد زكي باشا، المطبعة: الأميرية، القاهرة، ط:1، 1322هـ/1914م، ص: 91

[2] – المصدر نفسه، ص:91.

[3]– منير سلطان، الصورة الفنية في شعر المتنبي، منشأة المعارف الاسكندرية، ت ط ؛2002، ص 149.

غيره أصبح على دراية بتجاربه)[1]، وهذا ما نلاحظه في أدب الجاحظ فقد كان حريصا على أن يوصل الصورة كما في الواقع، بعيدا عن المجاز والتكلّف،(فنحن لا نقرأ له أي عبارات من تأليفه حتى نجده يُعنى بأصواته عناية تفضي إلى ضروب مختلفة من الإيقاعات الصوتية، ولم يكن يستعين على تجميل هذه الإيقاعات بشيء من البديع وألوانه، بل كان يكتفي بها لتعبر عن كل ما يريد من جمال لأسلوبه وطلاوة. وليس معنى ذلك أنه كان يستخدم السجع أو أسلوبًا مقاربًا منه، فإن السجع لم يكن يصلح له في تأليف كتبه ورسائله الطويلة، لذلك عدل عنه إلى ضروب من الإيقاعات وهي إيقاعات كان يستعين عليها بصور مختلفة من التكرار و الترداد.)[2]، ويتضح هذا جليا في النصوص التى بين أيدينا ففي نص المحاسن والأضداد، نجد كل جملة تقابل أختها مما يبرز التوازن الصوتي الدقيق، المنتج لإيقاعٍ موسيقي في قوله: (وإن نزلت بك مؤونة مالك، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت شدد صولك.)[3]،وفي البخلاء يقول: (إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق، وانفاق الدوانيق يفتح عليم أبواب الدراهم.)[4]، فهذه التقسيمات تضفي على النص جمالا لما تحدثه من نغم موسيقى وهذه خاصية تفرد بها الجاحظ، إذ تعد إحدى أدوات التصوير عنده، ومن أدواته أيضا اهتمامه بالمعنى قبل اللفظ (وكأني به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ ترصف، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنسق في موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان. وكان لذلك صبغته الخاصة في كتاباته)[5]، فقد كان يرى أن شر البلغاء من يهيء رسم المعنى قبل أن يهيء المعنى، ويظهر ذلك واضحا في نصوص هاته، فلم يكن الجاحظ من الذين يسارعون لإثراء كتاباتهم بزخرف البديع والمجاز والاستعارات فما وجد من ذلك في

[1] سعد اسماعيل شلبى، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب، ط 2، ص 89.

[2] – شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي،دار المعارف،القاهرة ،ط؛10، ص: 169.

[3] – الجاحظ، المحاسن والأضداد،تصحيح :محمد أمين الخانجي الكتبي ،مطبعة السعادة ،ط؛1،ت ط؛1224هـ ،ص:43.

[4] الجاحظ، البخلاء، تحقيق :طه الحاجرى ،دار العارف ،القاهرة ،ط؛ 7 ، ص: 106.

[5] شوقي ضيف ،الفن ومذاهبه في النثر العربي ،دار المعارف،القاهرة ،ط؛10،ص 161

نصوص الجاحظ إلا لتوضيح المعنى، أو وردت عفوا، مثل الطباق الكثير في قصص البخلاء، وكذلك من لوازم التصوير عنده تداول الألفاظ وبعدها عن الغرابة فالقارى لكتب الجاحظ لا يحتاج إلى معجم لشرح ألفاظه، ويقول في ذلك (وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًا ولا ساقطا وسوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًا إلا أن يكون المتكلم بدويًا أعرابيًا، فإن الوحشي من الكلام يفهم الوحشي من الناس،كما يفهم السوقى رطانة السوقي.)[1]، وهذا ما تؤكده نصوصه. التكرار الذي يعد سمة من سمات الجاحظ التى يعتمد عليها في تصويره، إذا يعتبر الأداة الأهم لتبليغ صوره.(وما من ريب في أن هذا التكرار يضفي على أسلوبه ضروبًا من الجمال إذ نراه يستعين به على ما يريد من تقطعات وتوقيعات صوتية فإذا الفكرة لا تؤدي في عبارة واحدة ولكن في عبارتين أو أكثر لا لسبب إلا لأن الجاحظ يريد أداءً موسيقيًا بجانب أدائها المعنوي)[2]،إذ نجده بكثرة في هذه النصوص. ففي المحاسن والأضداد يكرر لفظة (واصحب) في بداية كل مقطع. وفي البخلاء وبالتحديد قصة صبي مرو نجده يكرر لفظة (لا تريده)، ولكن قصد ذلك لغاية سبق ذكرها آنفا. وخلاصة قولنا في هذا المضمار. أن الجاحظ قدم تصويره للطفل على هيئة عامة ولم يخصه في شيء. فأشكال التصوير للطفل عنده جاءت متضمنة من بين أشكال الفنون التى ألف فيها، كقصة صبي مرو وردت ضمن قصص البخلاء الذي يعد أحد المؤلفاته المشهورة. كما لم يخصه بأدوات تصوير ملائمة له فكل ما استنتجته من أدوات تصوير أو أسلوب، من تكرار، واعتناء بالمعنى قبل اللفظ، وحسن التقسيم والتوازن الموسيقي، والبعد عن غريب اللفظ، والنفور من الزخرفة اللفظية...، كان كل ذلك من سمات أسلوبه الأدبي وميزة تحلى بها تعبيره، حيث أنها طبعت في كل مؤلفاته من رسائل وكتب ولم تكن من أجل التعبير عن الطفل خاصة.

[1] – عدنان على رضا النحوي، أدب الوصايا والمواعظ، دار النحوي ،ط؛1،ت ط؛1418هـ/1998م ، ص: 237.

[2] – شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف ،القاهرة ،ط؛10، ص: 171.

2- تخير المعجم اللفظي المناسب

إن حُبَّ العرب للأبناء لم يقتصر على اهتمامهم بتربيتهم وفصاحتهم اللغوية فحسب، كذلك كان للتسميات التى اطلقوها عليهم نصيباً، من العناية والاهتمام.

فالمتأمل فيها يجدها منقسمة إلى شقين فمن التسميات ما تحمل دلالات معنوية. أسماء الولد (السَّليخةُ الشّلْخُ العقْبُ العاقبةُ السَّليلُ السُلاَلَةُ النَّسْلُ النَّسيلةُ الزُّكبة الثَّمرةُ الرَّيحانُ البَوْلُ الزَرْعُ البَزْرُ التَّامُورُ الموْلَى.)[1]،إذ نجد لفظة السليخة والشلخ والشرخ والزكبة والنسل والنسيلة والسليل: تحمل معنا واحدا وهو الأصل والعرق، وتنادي العرب بهذه الأسماء للطفل لتبين أنه ينتسب إليهم ومن أصلهم. كما نجد من هاته الأسماء ما يدل على معنى التدليل والفرح والسرور بأبنائهم وهم: الريحان: وهو نبات في الجنة ذو رائحة طيبة. فهم يشبهون أبناءهم به لكثرة حبهم لهم، كذلك الثمرة والزرع، فهم يرون فيهم ثمار غرسهم، فينادون بهذه الأسماء غبطة وفرحا وسرورا بهم. ومن الأسماء أيضا ما يدل على الملك والخلافة وهي: (العقْبُ، العاقِبَةُ، السُلاَلَةُ، التَّامُور، المُوْلَى)، فأبنائهم هم خلفاؤهم في الأرض وهم من يملكونها بعدهم، وهم من يحملون اسماءهم، وهم من يرثون أموالهم.

بناءًا على هذا التصور وهذه المفاهيم اطلقت العرب هذه الأسماء على أطفالها. ومن الأسماء ذات الدلالات المعنوية نجد في الشق الآخر أسماء اطلقت حسب تقسيم المراحل العمرية. فالعرب كانت تسمي كل مرحلة من عمر الطفل باسم يخصها. ويقول الثعالبي في ذلك: (مَادَامَ في الرَّحِم فهو جنين، فإذا وُلدَ فهو وَلِيدُ، ومَادَامَ لَمْ يَسْتتِمَّ سَبْعَة أيَّام فَهُو صَدِيغُ (لانَّهُ لاَ يَشَتَدُّ صدْغُهُ إلى تمام السبعة)، ثُمَّ مَادَامَ يرْضعُ فَهُو رضِيعُ، ثُمَّ اذا قُطعَ عنْهُ اللّبنُ فَهُو فطيمُ، ثُمَّ اذا غلُظَ وذَهبتْ عنْهُ تَرَارةُ الرَّضَاع، فَهُو حجْوش.

[1] بابيدي، معجم أسماء الأشياء، تحقيق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، ص 133.

وعن الأصمعي انشد الهذلي:

قَتَلْنَا مَخْلَدًا وابني حُرَاقٍ وآخر حَجْوشًا فوق الفَطِيم

قال الازهري: كانَّهُ مأخُوذ من الحَجْشِ الذي هو وَلدُ الحمار ثمَّ هو اذا دب ونَمى دارجُ.

فإذا بلغ طوله خمسة أشبَارٍ فهو خماسي فإذا سقطت رواضعُهُ فهو مثغور.

عن ابي زيد فإذا نبتت اسنانُهُ بعْدَ السُّقُوط فهو مُثغرُ ومثُغرُ(عن ابي عمروا فإذا كاد يجاوز العشر السنين أوْ جاوَزَها فهو مُترعْرِعُ وناشئ، فإذا كاد يبلغُ الحُلُم أوبلغهُ فهو يافِعُ و مراهِقُ، فإذا أدْرك واجتمعت قوَّته فهو حَزَوّرُ واسمه في جميع هذه الاحوال غُلاَمُ)، فإذا اخضرَّ شاربهُ وأخذ عِذَارهُ يسيلُ قيل: بَقلَ وَجْهُهُ،فإذا صار ذا فتاء فهو فتَى وشارخُ)[1].

وعلى الرغم من دقة هذه الأسماء في توزيعها عبر مراحل عمر الطفل إلا أنها لم تأخذ حظها في التداول والشيوع بالحجم الذي عرفت به لفظة الطفل والصبيّ والفتى والغلام، لذلك وجب التدقيق في مفهومها، وفي أي مرحلة تطلق، فكثيرًا ما جاء على الألسنة لفظ طفل والذي دلّ على (الصَّبي يُدْعى طفلاً حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم. وتقول العرب: جارية طِفْلَة وطِفْلُ، وجاريتان طِفْلُ، وجوارٍ طِفْلُ، وغلام طِفلُ، وغلمان طِفلُ. والطِّفْلُ: المولود، وولَدُ كلّ وحْشيَّة أيضاً طِفْلُ، وغلام طَفْلُ إذا كان رخْص القدمين واليدين.)[2]،هذا ما جاء في لسان العرب من تعريف. ويعرفه الفيروز آبادي في القاموس المحيط يقول: (الطِفْلُ بالكسر: الصَّغيرُ من كلّ شئ، أو المَوْلود، وولَدُ كل وحْشية

[1] الثعالبي، فقه اللغة، حقق أحد الأدباء البسوعين، مطبعة الأدباء اليسوعين ، بيروت –لبنان،ت ط؛ 1885، ص 82 – 83.

[2] ابن منظور ، لسان العرب، دار صارت، بيروت، باب اللام، فصل الطاء المهملة، ، ص:401– 402

أيضاً.)[1]، أما في المعجم الوسيط: (الطِّفْلُ): المولُودُ ما دام ناعماً رخْصاً. والولد حتى البلوغ، وهو للفرد المذكرة (ج) أطْفال.

وفي المصباح المنير يعرف بـ:(الطِّفْلُ: الولدُ الصغيرُ من الإنسان والدواب قال ابن الأنباري ويكون (الطِّفْلُ) بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والجمع قال تعالى: (أو الطِّفْل الَذِين لَمْ يُظْهرُوا على عَوْرَات النّسَاءِ)، قال بعضهم ويبقى هذا الاسمُ لِلْولَد حتَّى يُميز ثُمَّ لا يُقال لهُ بَعْدَ ذلِكَ(طِفْلُ) بل صَبِي وحزوّرُ، ويافعُ ومراهقُ وبالغُ وفي التهذيب يُقال لهُ إلى أنْ يحتلم.)[2]، ومن خلال هذه التعاريف تبين أن المعاجم التى تطرقت لها ذات رؤية موحدة في تحديد مفهوم الطفل والذي أجمعوا على أن يكون منذ الولادة حتى البلوغ.

ومن لفظة الطفل إلى لفظة الفَتَى ويعرفه ابن منظور فيقول: (الفَتَى:وهو الشابَّ الحدث الذي شبَّ وقَوِي فكأنه يُقوّي ما أشكل ببيانه فيشِبُ ويصير فتيًا قويًّا، وأصله من الفتى وهو حديث السنّ.)[3]، وفي القاموس المحيط يعرف ب: (الفتَى: الشَّابُ)[4]، ويرد في المصباح المنير بمفهوم أوسع وأشمل يقول: (الفَتَى: العَبْدُ وجَمْعُهُ في القلة (فِتْيَةٌ) وفي الكثرة (فِتْيَانُ) والأَمَةُ (فَتَاةٌ) وجَمْعُهَا (فَتَيَاتُ) والأصْلُ فيه أن يُقال للشَّاب الحدَثِ (فتًى).

ثُمْ اسْتُعيرَ لِلْعَبْدِ وإنْ كان شَيْخًا مَجَازاً تسميةُ باسْمِ ما كان عليهِ.)[5]، أما معجم الوسيط، فقد كان دقيق في مفهومه بتحديده المرحلة العمرية، يقول: (الفَتَى: الشابُّ أوَّل

---

[1] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت –لبنان ،(باب الواو والياء، فصل الصاد)، ط؛8،ت ط؛ 1426هـ/2005م، ص:1302.

[2] – على الفيومي المقرئ، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت –لبنان، كتاب الطاء، ت ط؛ 1987، ص: 374.

[3] – ابن منظور، لسان العرب، دار صارت ،بيروت –لبنان،ج 15، باب الواو والياء والألف اللينة، فصل الفاء، ص: 148.

[4] – الفيروز آبادي ، القاموس المحيط،تحقيق :محمد نعيم العرقسوسي،مؤسسة الرسالة،بيروت –لبنان،ط؛8،ت ط؛1426هـ/2005م، ص 1320.

[5] – على الفيومي المقرئ، المصباح المنير، ص:462.

شبابه بين المراهقة والرجولة، مثناه فَتَيان وفتوان.(ج) فِتيانُ، وفتْيةُ وفُتُو،وفُتِيَّ وهي فتاة ج فتياتُ.)[1].

وأما الغلام فيذكر في لسان العرب: (الغُلام الطَّارُّ الشارب، وقيل: هو من حين يولد إلى أن يشيب، والجمع أغْلِمَةُ وغلْمانُ.)[2].

وفي القاموس المحيط، (والغُلام: الطَّارُ الشارب، والكَهْلُ ضِدٌّ، أو من حين يولد إلى أن يَشِبَّ،ج: أغلِمَة وغِلَمة وغِلْمان. وهي غُلامةُ)[3].

ويعرفه المصباح المنير ب:(الغُلام: الابن الصغير وجمع القلة (غِلْمَةُ) بالكَسْر وجمْعُ الكثرة (غِلْمَان) ويُطْلَقُ (الغُلاَمُ)على الرَّجُلِ مَجَازًا باسْم ما يتولُ إلَيْهِ وَجَاء في الشّعْرِ غُلاَمَه بالهاء للجارية. وقال الأزهري وسَمِعْتُ العَربَ تَقُولُ لِلمَوْلوُد حين يُولَدُ ذَكرًا (غُلاَم) وسمعتهم يقُولُون للكهل (غُلاَمُ) وهو فاش في كلاَمِهِمْ)[4].

وأما في المعجم الوسيط يعرف: (الغُلامُ: الطّارُ الشارب والصبيّ من حين يولد إلى أن يشبّ، ويطلق على الرجل مجازًا والخادم.

(ج) غِلّمان، وغلْمَة)[5].

[1] – شوقي ضيف وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، باب الفاء، ط؛4، 1425ه /2004م، ص:673.

[2] ابن منظور، لسان العرب، دار صارت ، بيروت ،ج 12، باب الميم، فصل الغين، ص 440.

[3] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق :محمد نعيم العرقسوسي ،مؤسسة الرسالة ،بيروت –لبنان،باب الميم،فصل الغين، ط؛8،ت ط؛1426ه/2005م، ص: 1143.

[4] على الفيومي المقرئ، المصباح المنير، مكتبة لبنان ،بيروت –لبنان ،كتاب الغين ؛ت ط؛1987م ،ص: 452.

[5] شوقي ضيف وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية ،باب الغين،ط؛4،ت ط؛1425ه/2004م، ص: 660.

(والصَّبِيُّ: من لَدُنْ يُولد إلى أنْ يُفطم، والجمع أصبْيةُ وصبْوة وصِبْيةُ وصِبْوانُ)[1].

وفي القاموس المحيط: (الصّبِيّ من لَمْ يُفطم بعدُ)[2]. ويعرف في المصباح المنير (الصَبيُّ: الصَّغيرُ والجَمْعُ (صِبْيةُ) بالكَسْرِ و(الصِبْيانُ) و(الصّبَا) بالكَسْرِ مَقْصورُ الصّغرُ).[3] وأما المعجم الوسيط (الصَّبيُّ: الصّغيرُ دون الغلام، أومن لمْ يُفطم بعدُ. (ج) صِبْيةُ وصِبْيَانُ)[4]

وبعد الاطلاع على ما جاءت به المعاجم تبين التالي:

1) أن الأسماء كانت بحسب المرحلة العمرية.

2)أن من الأسماء ما أخذت مفهومين، منها ما اطلق على الطفل كما اطلق على العبد أو الخادم، وهي الغلام والفتى.

3) من الأسماء ما اطلقتها على كل صغير من الإنسان والدواب، وهي الطفل.

4) من الأسماء ما اطلقتها على كبار السّن مجازًا وهي: الفتى والغلام.

[1] ابن منظور، لسان العرب،دار صارت ،بيروت ،ج 15، باب الواو والياء، فصل الصاد، ص: 450.

[2] الفيروز آبادي، القاموس المحيط،تحقيق ،محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة ،بيروت –لبنان،باب الواو والياء،فصل الصاد ،ط؛8،ت ط1426ه/2005م،ص: 1302.

[3] على الفيومي المقرئ، المصباح المنير،مكتبة لبنان، بيروت لبنان،كتاب الصاد،ت ط؛1987م، ص: 332.

[4] شوقي ضيف وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية ،باب الصاد،ط؛4،ت ط؛1425ه/2004م،ص:507 .

3- واقعية التصوير و محدودية الأخيلة

إن العمل الأدبي عمل فني، يصور الواقع بطعم الفنية وحسن التصوير فمن (يتابع الجاحظ في صنعة كتبه ورسائله يجده يشغف بحكاية الواقع، لا يتستر، ولا يتخفى، حتى إنه ليذكر السوءات والعورات في غير مواربة ولا مداجاة، وكأنه كان يرى أن يذكر الحقائق عارية دون أن يسدل عليها أي ستر أو أي حجاب، ودافع مرارًا عن هذا المنهج وقال إن من يعدل عنه لابد أن يكون صاحب رياء ونفاق)[1]، فهو من (أصحاب منهج الواقعية (realism) الذين لايداجون ولا ينافقون بل يصفون الأشياء كما هي في غير تحرج ولا تأثم)[2]، هذا هو المنهج الجاحظي، فلا يجنح للخيال إلا ما صدر منه عفويا كما سبق وذكرت، إذا يمتاز بدقة التصوير،(حيث تعد أعماله أهم مراجع تكشف لنا حقائق العصر الذي عاش فيه)[3]حيث يصور لنا في التاج أخلاق الملوك، ونصح الآباء لأبنائهم في آداب الاستئذان، ويصور المشهد بكل تفاصيله وكأننا نشاهده عن قرب، يقول: (يقال أن يزدجر رأى بهرام ابنه بموضع لم يكن له، فقال: مررت بالحاجب؟ قال: نعم. قال: وعلم بدخولك؟ قال نعم. قال: فاخرج إليه واضربه ثلاثين سوطًا، ونح عن الستر، ووكل بالحجابة أرادمرد. ففعل ذلك بهرام، وهو إذ ذاك ابن ثلاث عشرة ولم يعلم الحاجب فيم غضب الملك عليه)[4]، فالجاحظ لدقته في التصوير يذكر كل شي ما يفيد ذكره وما لا يفيد، وما ورد من غريب الأسماء، حتى أنه ينقل الصفات الداخلية للأشخاص. فمن خلال هذا الجزء للنص يتبين:

1/وصفه للملك في صرامته في تطبيق الأحكام.

---

[1] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، النيل –القاهرة، ط 10، ص 162.

[2] المرجع نفسه، ص:162.

[3] المرجع نفسه، ص:163.

[4] الجاحظ، التاج في اخلاق الملوك، تحقيق :أحمد زكي باشا،المطبعة الأميرية،القاهرة،ط؛1،ت ط؛1322هـ/1914م،ص 125

2/ القدرة العجيبة التى يمتلكها الابن ابن ثلاث عشر يجلد رجل ثلاثين جلدة، تطاول الابن على الحاجب.

وفي تكملة النص يقول: (فلما جاء بهرام، بعد ذلك ليدخل أرادمرد في صدره دفعة وقذه منها، وقال: إن رأيتك بهذا الموضع ثانيةً، ضربتك ستين سوطًا: ثلاثين منها لجنايتك على الحاجب أمس، وثلاثين لئلا تطمع في الجناية علي. فبلغ ذلك يزدجر، فدعا أرادمرد، فخلع عليه وأحسن اليه)[1].

وهنا صور الجاحظ:

1/ شجاعة الحاجب وجرأته فلم يخش الملك في تهديده لابنه.

2/ ذكاؤه في تصدي ابن الملك خشية أن يفعل به كما فعل بمن قبله، لأنه علم أن سبب ما نزل به من عقاب.

3/ مجازاة الملك له لتصرفه.

4/ ذكر أسماء غير معروفة ومتداولة (يزدجر، بهرام، أرادمرد)

وفي نص آخر له في التاج يصور موقف الوليد بن عبد الملك بن مروان، بطريقة فكاهية فيقول في هذا النص: (فيما يذكر عن عبد الملك بن مروان أنه مات بعض بنيه وهو صغير، فجاءه الوليد فعزاه، فقال: يابني مصيبتي فيك أقدح في بدني من مصيبتي بأخيك ومتى رأيت ابنًا عزى أباه ؟ قال: يا أمير المؤمنين أمي أمرتني بذلك قال: ذاك يا بني أهون على وهذا لعمري من مشورة النساء.)[2]، الملاحظ هنا أن الجاحظ صور:

1/الملك كيف نهر ابنه.

[1] المصدر السابق، ص:125.

[2]المصدر نفسه، ص: 91.

2/ كيف رد على غبائه إذ اعتبره مصيبة حيث فضل موت ابنه على التصرف الأحمق الذي قام به الابن الآخر.

وفي الفكاهة يحدثنا الجاحظ في بخلائه وهو يسرد قصة صبي مرو ويصوره في أدق الأمور بأسلوب طريف ومعاني عميقة، يقول: (كنت عند شيخ من أهل مرو، وصبي له صغير يلعب بين يديه)[1]، فستهلها بتصوير لوضعية البدنية لطفل ثم إنتقل إلى إحدى الصفات الداخلية وهي ذكاء الطفل وفطنته فيقول:(فقلت له،إما عابثًا وإما ممتحنًا:أطعمني من خبزكم. قال: لاتريده، هومر.فقلت: فاسقيني من مائكم. قال: لا تريده هو مالح قلت: هاتْ لي من كذا وكذا. قال لا تريده. هو كذا وكذا. إلى أن عددت أصنافًا كثيرة، كل ذلك يمنعنيه ويبغضه إليّ.)[2]، فالنص طريف ولكن من يغوص في أعماقه يفقه ما كان يرمي إليه الجاحظ فقد صور فيه حالة اجتماعية ونفسية لمجتمع أهل مرو، فكان اختياره لصبي ليمثل أبلغ صورة، وهذه القدرة الغريبة لشدة الملاحظة التى كان يتحلى بها الجاحظ، فقد آثر أن ينقل مجريات الحياة كما هي دون تغيير أو تزييف فني في ذلك، لهذا صبغت على أعماله الصبغة الواقعية، فكان عقلانيا لأبعد الحدود حتى قال عنه ابن العميد إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانيًا.

[1] الجاحظ، البخلاء، تحقيق :طه الحاجرى ،دار المعارف ،القاهرة، ط،7،ص: 18.

[2] المصدر نفسه، ص: 18.

الخاتمة

الخاتمة:

مثّل تصوير الطفل مادة أدبية وفنية متميزة في الأدب العربي القديم، ورغم عدم تخصيص الأدباء لمصنفات خاصة بهذه الفئة– مثلما هو جار في العصر الحديث–، إلا أن اهتمام العرب بالطفل كان واضحا في البنية الاجتماعية والأخلاقية والدينية والثقافية، مما جعل الجاحظ يتأثر بثوابت مجتمعه وينقلها في أدبه بشكل دقيق يسحبنا إلى العصر العباسي من خلال ما يتميز به أدبه. ومن خلال جمع شتات صور الطفل في بعض من آدابه توصلت إلى جملة من النتائج أفصلها في النقاط التالية:

ـ ركز الجاحظ في تصويره للطفل على الجانب التربوي واللغوي.

ـ كما صب اهتمامه على جنس البنين دون البنات في تصويره وهذا ما ورد عند العرب، لاهتمامها بالصبية الذين يحفظون النسل ويحملون اسماء أجدادهم، ويخوضون الحروب وصعاب الحياة.

ـ لم يخص الجاحظ الطفل في تصويره بأي شكل من أشكال الفنون الأدبية، بل جاء ضمن الفنون التي كتب فيها عامة أدبه من وصايا وقصص.

ـ كان تصويره نقل مباشر من البيئة التي يعيشها الطفل، بعيداً عن الزخارف الفنية، كانت واقعية محضة وهذا ما عرف عن الجاحظ، أي لم يخص الطفل بأسلوب خاص في تصوير.

ـ لم يهتم الجاحظ بالشكل الخارجي للطفل أثناء تصويره.

ـ ذكر الجاحظ الصفات الداخلية للطفل أثناء التصوير بشي من العفوية وعدم القصدية في ذلك كالغباء والشجاعة والفطنة.

ـ اطلقت العرب على الأبناء أسماء عدة، منها ما يقتصر على تحديد الفئة العمرية ومنها ما اطلق على العبد والولد، ومنها ما اطلق على كل ما هو صغير من البشر والدواب.

ـ أكد الجاحظ من خلال تصويره على العلاقة الوطيدة بين الطفل والمجتمع، واسهام المجتمع في تكوين بنية الطفل.

ختاماً لست أدعي التمام والكمال لأن ذلك من صفات الواحد الديان، ولا أنني استوفيت الموضوع من جميع جوانبه، ولكن أقر بأني اجتهدت في ذلك ما تسنى لي وما وصلت إليه حدود معرفتي وعلمي، للغوص في هذا الموضوع. وسبر أغواره والإبانة عن كل خفاياه، هذا وما أصبت منه بتوفيق الله ولطفه، وباعتناء المشرفة وتوجيهاتها، وإن كان من خطأ فمن نفسي وتقصيري من حيث لا أشعر، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

المصادر:

- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحاسن والأضداد، تصحيح: محمد أمين الخانجي الكتبي، مطبعة السعادة، ط 1، ت ط 1224م.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البخلاء، تحقيق، طه الحاجرى، دار المعارف، نيل –القاهرة، ط 7.
- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، التاج في اخلاق الملوك، تحقيق: أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط 1، ت ط 1322ه/1914م.

المراجع:

- ابن الخياط، ديوان، حققه: خليل مروم بكك، المطبعة الهاشمية، 1377ه/1958 م.
- ابن الرومي، ديوان، شرح أحمد حسن سبج، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، ج 2، ط 3،ت ط 1423 ه/ 2002 م.
- ابن رشيق، العمدة، تحقيق :محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل ،ج 1،ط؛5، ت ط؛1401ه/1981م.
- ابن منظور، لسان العرب، ج 15، باب الواو والياء والألف اللينة، فصل الفاء.
- ابن منظور، لسان العرب، باب اللام، فصل الطاء المهملة، دار صارت، بيروت.
- أبو علي القالي، الأمالي،ج–2.
- أبي الدنيا، العيال، حققه نجم عبد الرحمن خلف، دار ابن القيم، السعودية، ط–1،ت ط–1410ه/1990م، ج–1.
- أبي علي القالي، الأمالي , ,دار الكتب العلمية ,بيروت –لبنان ,ج:1.
- أحمد أبو سعد, أغاني ترقيص الأطفال عند العرب، ط؛2,ت ط ,1986م.

- بابيدي، معجم أسماء الأشياء، تحقيق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة.
- بن عبد ربه ، العقد الفريد , ,تحقيق مفيد محمد قميحة ,دار الكتب العلمية,بيروت – لبنان ,ج,1,ط؛1,ت ط 1404ه /1984م.
- بن عبد ربه، تأديب الناشئين، تحقيق محمد إبرهيم سليم، مكتبة القرآن.
- الثعالبي، فقه اللغة، حقق أحد الأدباء البسوعين، مطبعة الأدباء اليسوعين ، بيروت –لبنان، ت ط ؛1885.
- جلال الدين السيوطي، الفتح الكبير، المحقق: يوسف النبهاني، دار الفكر، بيروت –لبنان، ط 1، ج 2، ت ط 1423ه/ 2003م.
- حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة , ,شرحه أحمد حسن بسج ,دار الكتب العلمية,بيروت –لبنان ,ط؛1,ت ط؛1418ه/1998م.
- حسين نصار، الشعر الشعبي العربي، منشورات إقرأ, بيروت –لبنان ,ط؛2,ت ط 1400 ه/ 1980 م.
- الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، دار الكتاب العربي، بيروت، ج 2، ت ط 1414 ه/1994 م.
- سعد اسماعيل شلبى، الأصول الفنية للشعر الجاهلي، مكتبة غريب، ط 2.
- شوقي ضيف وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، باب الغين، ط 4، ت ط ؛ 1425ه /2004 م.
- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، النيل –القاهرة، ط 10.
- عبد الغفور الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت –لبنان، ت ط؛1966.

- عبد الله بن العديم، الدراري في ذكر الذراري، حققه علاء عبد الوهاب محمد، دار السلام، ط؛1، ت ط؛ 1404هـ/1984م.
- عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان، ط؛1،ت ط؛1973.
- عبد الله عفيفي، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مكتبة الثقافة، المدينة المنورة، ج–1، ط–2، ت ط 1350هـ /1932م.
- عدنان علي رضا النحوي، أدب الوصايا والمواعظ، دار النحوي، ط ؛1، ت ط، 1418 هـ/1998 م.
- على الفيومي المقرئ، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت–لبنان، كتاب الغين، ت ط 1987.
- على بن برهان الدين، انسان العيون، المطبعة الأزهرية مصر، ط؛3، ت ط؛ 1351هـ/1932م.
- عمرو بن كلثوم، ديوان,جمع وتحقيق وشرح إميل بديع يعقوب ,دار الكتاب العربي ,بيروت–لبنان ,ط؛1,ت ط ؛1411 هـ/1991 م.
- الفيروز آبادي ، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، باب الواو والياء، فصل الفاء، مؤسسة الرسالة، ط 8، ت ط، 1426هـ/2005م.
- محمد أسعد طلس، التربية والتعليم في الإسلام، ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- محمد بن ظفر المكي، أنباء نجباء الأبناء،ت ط؛565–497هـ.
- المفضّل الضبّي، المفضليات ,تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون, دار المعارف ,ط 6.
- مقامات الحريري ,دار بيروت للطباعة والنشر,بيروت ,ت ط 1398هـ/1978م.

- منير سلطان، الصورة الفنية في شعر المتنبي، منشأة المعارف الاسكندرية، ت ط 2002.
- النابغة الذبياني، ديوان , تحقيق محمد أبو الفضل إبرهيم ,دار المعارف ,ط؛2.

الأطاريح العلمية:

- تقي الدين قطافي ،صورة الطفل في الأدب العربي القديم ،مذكرة ماستر،جامعة قاصدي مرباح ،ورقلة ،2018.
- ربى شحاده صابر سماره،صورة الطفل في الشعر الجاهلي ،مذكرة ماجستير،جامعة النجاح الوطنية ،نابلس ـ فلسطين،2013.
- عقيلة بعيرة، بنية الخطاب السردي في بخلاء الجاحظ، مذكرة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2012.

المقالات:

- علي حسين محمد التمر، الوصايا في عصر صدر الاسلام، كلية التربية، جامعة الموصل، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد: 20، العدد ؛1، كانون الثاني،2012.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

العنوان		رقم الصفحة
الإهداء		
الشكر والعرفان		
مقدمة	.....	أ
تمهيد: تصوير الطفل في الأدب العربي القديم		6
الفصل الأول: عناية الجاحظ بالطفولة في أدبه		
المبحث الأول: العناية التربوية وأهميتها	.....	18
المبحث الثاني: العناية اللغوية وأساليبها	.....	24
الفصل الثاني: البعد الفني لتصوير الطفل في أدب الجاحظ		
المبحث الأول: أشكال تصوير الطفل وأدواته	.....	29
المبحث الثاني: تخير المعجم اللفظي المناسب	.....	37
المبحث الثالث: واقعية التصوير ومحدودية الأخيلة	.....	42
الخاتمة	.....	50
قائمة المصادر والمراجع	.....	53
فهرس المحتويات	.....	58
ملخص البحث		

الملخص:

يتحدث هذا البحث المعنون بـ: صورة الطفل في مختارات من أدب الجاحظ، والذي وقع اختياري على بعض النصوص من مؤلفاته التي اعتمدتها لتكون محل دراستي ومنها: البخلاء ـ التاج في أخلاق الملوك ـ المحاسن والأضداد. حيث كان التمهيد عبارة عن جولة عبر العصور من العصر الجاهلي إلى العباسي رصدت من خلالها مواطن تصوير الطفل، أما الفصل الأول فقد سلطت الضوء على عناية الجاحظ بالطفولة في أدبه من حيث اللغة والتربية، كما تطرقت بعدها للفصل الثاني الذي عالجت فيه الأشكال التي صور بها الطفل والأدوات المستخدمه، ومعجم الألفاظ المتداولة في ذلك. كما عرجت على قضية الواقعية والخيال ولأي مدى وظّف الجاحظ ذلك، لأنهي البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج التى توصلت إليها في هذه الدراسة.

الكلمات المفتاحية: صورة الطفل ـ العناية التربوية ـ أشكال التصوير.

Résumé:

Ce travail de recherche est intitulé « L'image de l'enfant dans préférée d'Al-Jahiz ». J'ai choisi quelques textes écrits par Al-Jahiz comme étant objet d'étude, entre autres: les Avares, la Couronne dans l'Ethique des Rois, des Beautés étantihéses.

Tous d'abord, j'ai commencé mon étude par une introduction dans laquelle nous jetons un coup d'œil sur les différentes ères de la période avant l'Islam jusqu'à la période Abbassi. Dans le premier chapitre, j'ai mis en lumière l'image de l'enfant dans les œuvres de l'auteur qui évoque (soigneusement) de manière soigneuse l'enfant dans ses écrits au niveau de la langue et de l'éducation de ce dernier.

Dans le deuxième chapitre, j'ai opté pour l'étude de l'image de l'enfant dans les différents contextes textuels, les moyens utilisés lors de la description et le lexique fréquent dans les livres. D'ailleurs j'ai traité le problème de la réalité et la fixation de cette image enfantine et à quelle mesure il les met en œuvre.

Le travail se conclut par l'idée de l'influence de la société sur l'éducation de l'enfant et par une conclusion abordant les résultats abroutis à la fin de l'étude.

Les mots clés: l'image de l'enfant, soins éducatifs, les formes de la présentation.